(٩٦) سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة

زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ اعلم أن فى الباء من قوله (باسم ربك) قولين (أحدهما) قال أبو عبيدة الباء زائدة، والمعنى : اقرأ اسم ربك، كما قال الأخطل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المحاجر لا يقرأن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك، أى أذكر اسمه، وهذا القول ضعيف لوجوه (أحدها) أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول ما أنا بقارىء، أى لا أذكر اسم ربى (وثانيها) أن هذا الأمر لا يليق بالرسول، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله، فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولا به أبداً (وثالثها) أن فيه تضييع الباء من غير فائدة.

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من قوله (اقرأ) أى اقرأ القرآن، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) وقال (وقرآناً فرقنا لتقرأه على الناس على مكث) وقوله (باسم ربك) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ، وفى هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية فى ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به، وفى هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يبتدىء بها (وثانيها) أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا، ونظيره كتبت بالقلم، وتحقيقه أنه لما قال له (اقرأ) فقال له لست بقارىء، فقال (اقرأ باسم ربك) أى استعن باسم ربك واتخذه آلة فى تحصيل هذا الذى عسر عليك (وثالثها) أن قوله (اقرأ باسم ربك) أى اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله، فإن العبادة

إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترىء الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل كيف يستمر هذا التأويل فى قولك قبل الأكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان فى ذلك الطعام (والثانى) أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .

أما قوله (ربك) ففيه سؤالان :

﴿أحدها﴾ وهو أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا (باسم ربك) ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال فى التسمية المعروفة (بسم الله الرحمن الرحيم) (وجوابه) أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ فى الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال هو الذى رباك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين (أحدهما) ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل (والثانى) أن الشروع ملزم للاتمام ، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أى حين كنت علقا لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نفيساً موحداً عارفاً بى كيف أضيعك !

﴿السؤال الثانى﴾ ما الحكمة فى أنه أضاف ذاته إليه ، فقال (باسم ربك) ؟ (الجواب) تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا ، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام «على منى وأنا منه» كأنه تعالى يقول هولى وأنا له ، يقرره قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) أو نقول إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم فى الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول هو ابنى لحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى المنفعة تصل منى إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول أنا لك ولا أقول أنت لى ، ثم إذا أتيت بما طالبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسى فقلت أنزل على عبده (ياعبادى الذين أسرفوا) .

﴿السؤال الثالث﴾ لم ذكر عقيب قوله (ربك) قوله (الذى خلق) ؟ (الجواب) كأن العبد يقول ما الدليل على أنك ربى ؟ فيقول لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوما . ثم صرت موجوداً فلا بد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أنى ربك وأنت مربوبى .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون قوله (الذى خلق) لايقدر له مفعول ، ويكون المعنى أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لاخالق سواه (والثانى) أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذى خلق كل شىء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس حمله على البعض أولى من حمله على الباقى ، كقولنا الله أكبر ، أى من كل شىء ، ثم قوله بعد ذلك (خلق الإنسان من علق) تخصيص للانسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض (والثالث) أن يكون قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق) مبهماً ثم فسره بقوله (خلق الإنسان من علق) تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها ، قالوا وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هى القدرة على الاختراع ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله ، فقال : (وما رب العالمين) قال موسى (ربكم ورب ابائكم الأولين) والربوبية إشارة إلى الخالقية التى ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى ، أو النظر فى معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولا إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذى لاشريك له ، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدم ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به كما يحكى إن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبى حنيفة . وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر فى المسألة أقاويل أئمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر ، واذكر قولى وحجتى ، فإذا تمكن ذلك فى قلبهم ، فقل هذا قول أبى حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول ، إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أثنيت على وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك ، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه ، فبهذا التدريج يقرون بأنى أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية وحصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل ، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر ، وإن كان قديماً فإما أن يكون موجباً

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾

أو قادراً ، فإن كان موجباً لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال (من علق) على الجمع لأن الإنسان فى معنى الجمع ، كقوله (إن الإنسان لفى خسر) .

قوله تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم اقرأ أولا لنفسك ، والثانى للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثانى للتعليم . أو اقرأ فى صلاتك ، والثانى خارج صلاتك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكرم إفادة ما ينبغى لا لعوض ، فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم ، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ، ولهذا قال أصحابنا إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلا لغرض لأنه لو فعل فعلا لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لا حصوله ، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصا بذاته مستكملا بغيره وذلك محال ، ثم ذكروا فى بيان أكرميته تعالى وجوهاً (أحدها) أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية ، لكن لا يبقى إحسانه على الوجه الذى كان قبل الجناية ، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ومنه قول القائل :

متى زدت تقصيراً تزد لى تفضلا كأنى بالتقصير استوجب الفضلا

(وثانيها) إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً . أما أنا فالأكرم إذ لا أفعله إلا لمحض الكرم (وثالثها) أنه الأكرم لأن له الابتداء فى كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير (ورابعها) يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة أى هذا الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشراً أو حثاً على الإخلاص ، أى لا تقرأ لطمع ولكن لأجلى ودع على أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك مالا يخطر ببالك ، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحداً فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه سبحانه وصف نفسه بأنه (خلق الإنسان من علق) وثانياً بأنه علقة وهى بالقلم) ولا مناسبة فى الظاهر بين الأمرين ، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة وهى أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة ، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾

الإنسانية ، كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والإقدار و الرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم هو الذى أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية فى الشرف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله (الذى علم بالقلم) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثانى إلى النبوة ، وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (علم بالقلم) وجهان (أحدهما) أن المراد من القلم الكتابة التى تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها (والثانى) أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام ، فقال ريح لا يبقى ، قال فما قيده ، قال الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالى والأيام ، نظيره قول زكريا (إذ نادى ربه نداء خفياً) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد مبصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم ، التراب طهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل عن اللسان ولو بعث إلى المشرق والمغرب .

أما قوله تعالى ﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر واو النسق ، وقد يجرى مثل هذا فى الكلام تقول أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم مالم يعلمه ، فيكون قوله (علم الإنسان مالم يعلم) بياناً لقوله (علم بالقلم) .

قوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا إلى آخرها فى أبى جهل . وقيل نزلت من قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) إلى آخر السورة فى أبى جهل : قال ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فجاء أبو جهل ، فقال ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال

أبو جهل : والله إنك لتعلم أنى أكثر أهل الوادى نادياً ، فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله ، فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعززاً بماله ورياسته فى مكة . ويروى أنه قال ليس بمكة أكرم منى . ولعله لعنه الله قال ذلك رداً لقوله (وربك الكرم) ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل مانزل . ومنهم من قال : يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولا ، ثم نزلت البقية بعد ذلك فى شأن أبى جهل ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ، لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى ، ألا ترى أن قوله تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل (القول الثانى) أن المراد من الإنسان المذكور فى هذه الآية جملة الإنسان ، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات ، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر ، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقة ، وأنعم عليه بالنعم التى قدمنا ذكرها ، إذ أغناه ، وزاد فى النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد فى المعاصى واتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه طريقة ، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله (إن إلى ربك الرجعى) أى إلى حيث لا مالك سواه ، فتقع المحاسبة على ماكان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (كلا) فيه وجوه (أحدها أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه (وثانيها) قال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذى خلقه من العلقة وعلمه بعد الجهل ، وذلك لأنه عند صيرورته غنياً يطغى ويتكبر ، ويصير مستغرق القلب فى حب الدنيا فلا يتفكر فى هذه الأحوال ولا يتأمل فيها (وثالثها) ذكر الجرجانى صاحب النظم أن (كلا) ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شىء تكون (كلا) رداً له ، وهذا كما قالوه فى (كلا والقمر) فإنهم زعموا أنه بمعنى : إى والقمر :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الطغيان هو التكبر والتمرد ، وتحقيق الكلام فى هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر فى مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لايطلع عليها ولا يقف على حقائقها . أتبعها بماهو السبب الأصلى فى الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة ، فإنه لا سبب لعمى القلب فى الحقيقة إلا ذلك . فإن قيل إن فرعون ادعى الربوبية ، فقال الله تعالى فى حقه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وههنا ذكر فى أبى جهل (ليطغى) فأكده بهذه اللام ، فما السبب فى هذه الزيادة ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أنه قال لموسى (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وذلك قبل أن يلقاه موسى ، وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وقبل أن يدعى الربوبية . وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد (وثانيها) أن فرعون مع كمال سلطته ماكان يزيد كفره على القول ، وماكان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه . وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾

يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاءه (وثالثها) أن فرعون أحسن إلى موسى أولا ، وقال آخراً (آمنت) . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي فى صباه ، وقال فى آخر رمقه : بلغوا عنى محمداً أنى أموت ولا أحد أبغض إلى منه (ورابعها) أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب فى مقابلة الكليم كاليد فى مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده ، بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

قوله تعالى : ﴿ أن رآه استغنى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأخفش : لأن رآه فحذف اللام ، كما يقال أنكم لتطغون أن رأيتم غناكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال (أن رآه) ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التى تستدعى اسما وخبراً نحو الظن والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فتقول رأيتنى وظننتنى وحسبتنى فقوله (أن رآه استغنى) من هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ فى قوله (استغنى) وجهان : (أحدهما) استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس هو الأول ، لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام ، فإنه كان يجالس المساكين ويقول «مسكين جالس مسكيناً» وعبد الرحمن بن عوف ماطغى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه فى حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه ، وفى الآية (وجه ثانى) : وهو أن سين (استغنى) سين الطالب والمعنى أن الانسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد فى الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد ، لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه فى الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء فى الآخرة يصيرون مدبرين خائفين ، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً فى الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

قوله تعالى : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الرجعى) المرجع والرجوع وهى بأجمعها مصادر ، يقال رجع إليه رجوعاً

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

ومرجعاً ورجعى على وزن فعلى ، وفى معنى الآية وجهان : (أحدهما) أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله (ولا تحسبن الله غافلا) إلى قوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وهذه الموعظة لا تؤثر إلا فى قلب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل (والقول الثانى) أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كما رده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونتبع دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن أبى جهل لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال فوالذى يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه ، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا شديداً . وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة .

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد فى هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره ، فلذلك قالوا إنه ورد فى أبى جهل ، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلى ، ولا يمتنع أن يكون نزولها فى أبى جهل ، ثم يعم فى الكل ، لكن ما بعده يقتضى أنه فى رجل بعينه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أرأيت) خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبى جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يعز به الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو (ينهى عبداً إذا صلى) (وثانيها) أنه كان يلقب بأبى الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان ! (وثالثها) أن ذلك الأحمق يأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب ، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ينهى عبداً) ولم يقل ينهاك ، وفيه فوائد (أحدها) أن التنكير فى عبداً يدل على كونه كاملا فى العبودية ، كأنه يقول : إنه عبد لا يفى العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه فى

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

عبوديته (يروى) في هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته فقال أخبرني عن أخلاق رسولكم ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به مني . ثم إن بلالا دله على فاطمة ثم فاطمة دلته على علي عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل هذا لا يتيسر لي ، فقال علي : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال (قل متاع الدنيا قليل) فكيف أصف أخلاق النبي وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فكأنه تعالى قال ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق (وثانيها) أن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى (وثالثها) أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة ، روي عن علي عليه السلام أنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له ألا تنهاهم ؟ فقال أخشى أن أدخل تحت قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) فلم يصرح بالنهي عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لي ؟ قال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهي (ورابعها) أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي لا أجد ساجداً غيره ، إن محمداً عبد واحد ، ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا وهم دائما في الصلاة والتسبيح (وخامسها) أنه تفخيم لشأن النبي عليه السلام يقول إنه مع التنكير معرف ، نظيره الكناية في سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر (أسرى بعبده) (أنزل على عبده) (وأنه لما قام عبد الله) .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أرأيت) خطاب لمن ؟ فيه وجهان (الأول) أنه خطاب للنبي عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً) للنبي صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله (أرأيت إن كذب وتولى) للنبي عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبي لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يا محمد : أرأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول أرأيت إن صار على الهدى ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة ، فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنيئة .

﴿ القول الثاني ﴾ أنه خطاب للكافر ، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم ، وكالمولى الذي قام بين يديه عبدان ، وكالحاكم الذي حضر عنده المدعي ، والمدعى عليه فخاطب هذا مرة ، وهذا

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾

مرة . فلما قال للنبي (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) التفت بعد ذلك إلى الكافر ، فقال : أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا سؤال وهو أن المذكور فى أول الآية . هو الصلاة وهو قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) والمذكور ههنا أمران ،وهو قوله (أرأيت إن كان على الهدى) فى فعل الصلاة ، فلم ضم إليه شيئاً ثانياً ، وهو قوله (أو أمر بالتقوى) ؟ (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الذى شق على أبى جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله ، فلا جرم ذكرهما ههنا (وثانيها) أن النبى عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا فى أحد أمرين ، إما فى إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو فى إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه . فيميل إلى الايمان ، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التى ذكرها فى أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم ببديهة عقله ، أن منع العبد من خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذن كل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم أنه على الباطل ، وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً . فلهذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة (والثانى) أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهى بل احتاج إلى نهيك .

أما قوله ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، وترغيباً عظيما لأهل الطاعة

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية وإن نزلت فى حق أبى جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك أبى جهل فى هذا الوعيد ، ولا يرد عليه المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة والأوقات المكروهة ، لأن المنهى عنه غير الصلاة وهو المعصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضاً للعبادة وربه .

ثم قال تعالى ﴿ كلا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه ردع لأبى جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات (وثانيها) كلا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمداً أو يطأ عنقه ، بل تلميذ محمد هو الذى يقتله ويطأ صدره (وثالثها) قال مقاتل : كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .

ثم قال تعالى ﴿ لئن لم ينته ﴾ أى عما هو فيه ﴿ لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (لنسفعاً) وجوه (أحدها) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشىء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) (وثانيها) السفع الضرب ، أى لنلطمن وجهه (وثالثها) لنسودن وجهه ، قال الخليل تقول للشىء إذا لفحته النار لفحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار ، قال والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال والسفعة سواد فى الخدين . وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والاهانة (ورابعها) لنسمنه قال ابن عباس فى قوله (سنسمه على الخرطوم) إنه أبو جهل (وخامسها) لنذلنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء لنسفعن بالنون المشددة ، أى الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وقرأ ابن مسعود لأسفعن ، أى يقول الله تعالى يا محمد . أنا الذى أتولى إهانته ، نظيره (هو الذى أيدك) ، (هو الذى أنزل السكينة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار فى الآخرة وأن يكون المراد منه فى الدنيا ، وهذا أيضاً على وجوه (أحدها) ما روى أن أبا جهل لما قال : إن رأيته يصلى لأطأن عنقه ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبى جهل ويخر لله ساجدا فى آخرها ففعل ، فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه ، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً ، فقيل له مالك ؟ قال إن بينى وبينه لحلا فاغراً فاه لو مشيت إليه لالتقمنى ، وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه فى صورة الأسد (والثانى) أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه إلى القتل إذا عاد إلى النهى ، فلما عاد لا جرم مكنهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر ، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن (علم القرآن) قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش ، فتثاقلوا مخافة أذيتهم ، فقام ابن مسعود وقال : أنا يارسول الله ، فأجلسه عليه السلام ، ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يقم إلا ابن مسعود ، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر

جثته . ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه ، فانصرف وعيناه تدمع ، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً ، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً ، فقال ياجبريل تضحك وابن مسعود يبكي ! فقال ستعلم ، فلما ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في المجاهدين ، فأخذ يطالع القتلى . فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولعل هذا معنى قوله (سنسمه على الخرطوم) ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال يارويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فقال أبو جهل : بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه في حياتي ولا أحد أبغض إلى منه في حال مماتي ، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال « فرعوني أشد من فرعون موسى فإنه قال (آمنت) وهو قد زاد عتواً » ثم قال لابن مسعود اقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع ، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه : (أحدها) أنه كلب والكلب يجر (والثاني) لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن (والثالث) لتحقيق الوعيد المذكور بقوله (لنسفعاً بالناصية) فتجر تلك الرأس على مقدمها ، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ، ويقول يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن ، فهذا ماروى في مقتل أبي جهل نقلته معنى لا لفظاً ، الخاطيء معنى قوله (لنسفعاً بالناصية) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر الناصية ، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية ، ولعل السبب فيه أن أباجهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها ، وربما كان يهتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية وأي ناصية كاذبة قولا خاطئة فعلا ، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي ، وقيل كذبه أنه قال . أنا أكثر أهل هذا الوادي نادياً ، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى (لا يأكله إلا الخاطئون) والفرق بين الخاطيء والمخطيء أن الخاطيء معاقب مؤاخذ والمخطيء غير مؤاخذ ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (ناصية) بدل من الناصية ، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة ، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة .

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرىء ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية ، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم ، واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات ، قال : يا محمد بمن تهددني وإني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه ، فنزل قوله تعالى ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد مر تفسير النادي عند قوله (وتأتون في ناديكم المنكر) قال أبو عبيدة ناديه أي أهل مجلسه ، وبالجملة فالمراد من النادي أهل النادي ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، وسمي نادياً لأن القوم يندون إليه ندأ وندوة ، ومنه دار الندوة بمكة ، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور ، وقيل سمي نادياً لأنه مجلس الندى والجود ، ذكر ذلك على سبيل التهكم أي : اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنه إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن ، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبنية عفرية ، وقال الأخفش قال بعضهم واحده الزباني ، وقال آخرون الزابن ، وقال آخرون هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة العرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة . وقال مقاتل هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء ، وقال قتادة الزبانية هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد ، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أي يدفعونهم في جهنم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان (الأول) أي فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباطلة محمد ، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم ، قال ابن عباس : لودعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة ، وقيل هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر ، وقيل بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار (القول الثاني) أن في الآية تقديماً وتأخيراً أي لنسفعاً بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة ، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله (فليدع ناديه) تدل على المعجز ، لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه ، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية ، فلما لم يجترىء الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرىء (ستدعى) على المجهول . وهذه السين ليست للشك وإن عسى

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

من الله واجب الوقوع ، وخصوصاً عند بشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام « لأنصرنك ولو بعد حين » .

ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع لأبي جهل ، وقيل معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك ، ويحتمل : لن ينال مايتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال ﴿ لا تطعه ﴾ وهو كقوله (فلا تطع المكذبين) ، ﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وإبلاغاً ، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك ، وقال بعضهم بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود في الصلاة .

ثم قال ﴿ واقترب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفي الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » وقال بعضهم المراد : اسجد يامحمد ، واقترب ياأبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله (ليغيظ بهم الكفار) والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفار كان يمنعه من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ، ثم قال عند ذلك (واقترب) منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه ، وهذا تهكم به واستحقار لشأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❁

سورة «العَلَق»

وهي مكّيةٌ بإجماعٍ، وهي أوّلُ ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشةَ رضي الله عنهما[2]. وهي تسعَ عَشْرةَ آيةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾

هذه السورةُ أوّلُ ما نزل من القرآن في قولِ مُعْظَمِ المفسِّرين. نزل بها جبريلُ على النبيِّ ﷺ وهو قائمٌ على حِراءٍ، فعلَّمه خمسَ آياتٍ من هذه السورة.

وقيل: إنَّ أول ما نزل «يا أيُّها المُدَّثِّر»؛ قاله جابر بنُ عبد الله، وقد تقدَّم[3].

وقيل: فاتحةُ الكتابِ أوّلُ ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرةَ الهَمْدانيّ[4].

وقال عليّ بنُ أبي طالب ﷺ: أوّلُ ما نزل من القرآن ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١][5].

والصحيحُ الأوّل؛ قالت عائشة: أوّلُ ما بُدِئ به رسولُ الله ﷺ الرؤيا الصادقةُ،

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧) وهو من طريق إسماعيل بن أمية، عن أعرابيٍّ، عن أبي هريرة به. قال الترمذي: هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي عن أبي هريرة، ولا يسمَّى.

وذكر ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٩٠ عن أبي زرعة قوله: الصحيح إسماعيل بن أمية عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبي هريرة موقوفاً.

(٢) سيأتي قولهما قريباً.

(٣) في بداية تفسير سورة المدثر ٢١/ ٣٥٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠١ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢، وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٢.

فجاءه المَلَكُ فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾. خرَّجه البخاريّ(١).

وفي الصحيحين عنها قالت: أوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ من الوَحْي الرؤيا الصادقةُ في النوم، فكان لا يَرَى رؤيا إلّا جاءت مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثم حُبِّب إليه الخَلاءُ، فكان يخلو بغارِ حراءٍ، يتحنَّثُ فيه اللَّياليَ ذواتِ العددِ [قبلَ أَنْ يَرْجع إلى أَهلِه]، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ فيتزوَّدُ لمثلها؛ حتى فَجِئه الحقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئٍ» قال: «فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأَخَذني فغطَّني الثانيةَ حتى بَلَغَ منّي الجَهْدُ، ثم أَرْسَلَنِي فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأَخَذَني فغطَّني الثالثةَ حتى بلغ منِّي الجَهْدُ، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» الحديثَ بكماله(٢).

وقال أبو رجاء العُطارِدِيُّ: وكان أبو موسى الأشعريُّ يطوفُ علينا في هذا المسجد ـ مسجدِ الْبَصْرةِ ـ فيُقعِدُنا حِلَقاً فيقرِئُنا القرآن، فكأنِّي أنظرُ إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذتُ هذه السورةَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾. وكانت أوّلَ سورةٍ أنزلها الله على محمدٍ ﷺ(٣).

وروتْ عائشةُ رضي الله عنها أنها أوّلُ سورةٍ أُنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها «ن والقلم»، ثم بعدها «يا أيها المدثر»، ثم بعدها «والضحى». ذَكَره الماوَرْدِيّ(٤).

---

(١) برقم (٤٩٥٥).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٥٣)، وصحيح مسلم (١٦١)، وما سلف بين حاصرتين منهما، وهو عند أحمد (٢٥٩٥٩).

(٣) أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٤)، والطبري ٢٤/ ٥٣١، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥٦.

(٤) في النكت والعيون ٦/ ٣٠٤، وأخرجه ابن الأنباري في المصاحف، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٦٨.

وعن الزُّهريِّ: أولُ ما نزل سورةُ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فحزِن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِقَ الجبالِ، فأتاه جبريلُ فقال: إنَّك نبيُّ الله، فرجع إلى خديجةَ وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليَّ ماءً بارِدًا»، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[١].

ومعنى «اقرأ باسمِ ربِّك» أي: اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مُفْتتِحاً باسمِ ربِّك، وهو أنْ تذكر التَّسمية في ابتداءِ كلِّ سورةٍ. فمحلُّ الباءِ من «باسم ربِّك» النصبُ على الحال. وقيل: الباءُ بمعنى على، أي: اقرأ على اسمِ ربِّك. يقال: فَعَلَ كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروءُ محذوفٌ، أي: اقرأ القرآن، وافْتَتِحْه باسْمِ الله.

وقال قومٌ: اسم ربِّك هو القرآنُ، فهو يقول: «اقرأ باسم ربك»، أي: اسمَ ربِّك، والباءُ زائدةٌ، كقوله تعالى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وكما قال:

سُودُ المَحاجِر لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ[٢]

أراد: لا يقرأنَ السُّوَرَ.

وقيل: معنى «اقرأ باسم ربِّك»، أي: اذْكُر اسمَه. أَمَره أن يبتدئ القراءةَ باسم الله[٣].

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني ابنَ آدَمَ ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ أي: من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقةُ: الدَّمُ الجامدُ، وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: «مِنْ عَلَق» فذَكَره بلَفْظِ الجَمْعِ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمعَ، وكلُّهم خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقَةُ: قطعةٌ من دمٍ رَطْبٍ، سمِّيتْ بذلك لأنها تَعْلَقُ لرطوبتها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكن

(١) الكشاف ٤/ ١٨٠ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٣٢٧ ، والبخاري في آخر الحديث (٦٩٨٢)، والطبري ٢٣/ ٤٠٣ ، وينظر فتح الباري ١٢/ ٣٥٩ .

(٢) وصدره: هن الحرائر لا ربَّاتُ أَحْمِرةٍ، والبيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ١٢٢ ، وسلف ١/ ١٠٧ .

(٣) والباء على هذا القول زائدة أيضاً، كما ذكر الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٢٨ ، والبغوي ٤/ ٥٠٧ .

عَلَقةً؛ وقال الشاعر:

تـركـنـاه يَـخِـرُّ عـلـى يـديـه يـمـجُّ عـلـيـهـمـا عَـلَـق الـوَتِـيـنِ[١]

وخَصَّ الإنسانَ بالذِّكرِ تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبيِّن قَدْرَ نعمتِه عليه، بأنْ خَلقَه مِن عَلَقةٍ مَهِينةٍ، حتى صار بشراً سَوِيًّا، وعاقلاً مميِّزاً.

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ تأكيدٌ، وتمَّ الكلام، ثم استأنفَ فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: الكريم. وقال الكلبيُّ: يعني الحليم عن جَهْلِ العباد، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم[٢]. والأوّلُ أَشْبَهُ بالمعنى؛ لأنه لمَّا ذَكَر ما تقدَّم من نِعَمِه، دلَّ بها على كَرَمه.

وقيل: «اقرأ وربُّك» أي: اقرأ يا محمدُ وربُّك يُعِينُك ويُفْهِمُك، وإنْ كنتَ غيرَ القارئ. و«الأكرمُ» بمعنى: المتجاوِزُ عن جَهْلِ العباد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

فيه ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني الخطَّ والكتابة، أي: علَّم الإنسانَ الخطَّ بالقلم. ورَوى سعيدٌ عن قتادةَ قال: القلمُ نعمةٌ من الله تعالى عظيمةٌ، لولا ذلك لم يَقُمْ دينٌ، ولم يَصْلُحْ عيشٌ[٣]. فدلَّ على كمالِ كرمِه سبحانه، بأنه عَلَّم عبادَه ما لم يَعْلَموا، ونَقَلَهم من ظُلْمةِ الجَهْلِ إلى نور العلم، ونَبَّه على فَضْلِ عِلْمِ الكتابة، لِمَا فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيطُ بها إلَّا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطتْ أخبارُ الأوَّلين ومقالاتُهم، ولا كُتبُ اللَّهِ المُنْزَلةُ، إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامتْ أمورُ الدِّينِ والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنَّه يُقْلَم، أي: يُقْطَع، ومنه تقليمُ الظفرِ. وقال بعضُ الشعراءِ المحدثين يصفُ القلم:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥.

(٢) الوسيط ٤/ ٥٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ٥٠٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٢٧، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣١٩ لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

فكأنه والحِبْرُ يَخْضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوَصْلِ خَرِيدةٍ[(١)] يَتَصَنَّعُ
لِمَ لا[(٢)] أُلاحِظُه بعينِ جَلالةٍ وبه إلى الله الصَّحائفُ تُرفعُ

وعن عبد الله بن عمرو[(٣)] قال: يا رسولَ الله، أأكتبُ ما أسمعُ منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتبْ، فإنَّ الله عَلَّم بالقلم»[(٤)].

وروى مجاهدٌ عن ابن عمر قال: خَلَقَ الله عزَّ وجلَّ أربعةَ أشياءَ بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن، فكان. القلمَ، والعَرْشَ، وجنةَ عَدْنٍ، وآدمَ عليه السلام[(٥)].

وفيمَن علَّمه بالقلم ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها: أنَّه آدمُ عليه السلام؛ لأنه أوّلُ مَن كَتَب؛ قاله كعبُ الأحْبار.

الثاني: إدريسُ، وهو أولُ مَن كتب؛ قاله الضحاك.

الثالث: أنه أَدْخَل كلَّ مَن كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلَّا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك [بينَ] نعمتِه عليه في خَلْقه، وبينَ نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه[(٦)].

الثانية: صحَّ عن النبيِّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال: لمَّا خَلَق الله الخَلْقَ كَتب في كتابه - فهو عنده فوق العرش - : «إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي»[(٧)].

---

(١) هي البكر لم تُمسَسْ. القاموس (خرد).

(٢) في النسخ: ألا، بدل: لم لا، والمثبت من زهر الآداب للقيرواني ١/ ٥١٨ ، وقد ذكر البيتين ضمن قصيدة في وصف المحبرة والقلم، ولم ينسبها.

(٣) في النسخ: عمر، والمثبت هو الصواب.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ القزويني في أخبار قزوين ٢/ ٣٧ ، وأخرجه أحمد (٦٩٣٠) بلفظ: ... أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: في الرضا والسخط؟ قال: «نعم، فإنه لا ينبغي لي أن أقول في ذلك إلا حقًّا».

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧٢٩) و(٧٣٠). وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٠٥ ، وفيهما: لسائر الخلق، بدل: لسائر الحيوان.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) أخرجه أحمد (٨٩٥٨)، والبخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٥٧١).

وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أوّلُ ما خَلَقَ الله: القلمُ، فقال له: اكتُبْ، فكَتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذِّكر فوقَ عَرْشِه»(١).

وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: [أنه](٢) سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً، بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولحمها وعَظْمَها، ثم يقول: يا ربّ، أَذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربُّك ما شاء ويكتب المَلَك، ثم يقول: يا ربّ أَجَلُه، فيقول ربُّك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقُه، فيقضي ربُّك ما شاء، ويكتبُ المَلك، ثم يخرج الملكُ بالصحيفة في يده، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنْقُصُ» وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠-١١].

قال علماؤنا: فالأقلامُ في الأصل ثلاثةٌ:

القلمُ الأوّل: الذي خَلقَه اللهُ بيده، وأَمَره أن يكتب.

والقلم الثاني: أقلامُ الملائكةِ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقاديرَ والكوائن والأعمال.

والقلم الثالث: أقلامُ الناسِ، جَعَلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويَصِلُون بها [إلى] مآرِبهم(٣). وفي الكتابة فضائلُ جَمَّةٌ. والكتابةُ من جملةِ البيان، والبيانُ مما اختُصَّ به الآدميُّ.

الثالثة: قال علماؤنا: كانت العربُ أقلَّ الخَلْقِ معرفةً بالكتابة، وأقلُّ العربِ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤، وهذه قطعة من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥) وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩) دون قوله: فهو عنده في الذكر فوق عرشه. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق، والحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري، وليس عن ابن مسعود كما ذكر المصنف. وهو في صحيح مسلم (٢٦٤٥)، ومسند أحمد (١٦١٤٢)، وسلف ١٤/ ٣١٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٤، وما بين حاصرتين منه.

معرفةً به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن عِلْمِه، ليكون ذلك أَثْبَتَ لمعجزته، وأقوى في حجته[١]، وقد مضى هذا مبيَّناً في سورة العنكبوت[٢].

وروى حَمَّاد بنُ سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفِهْريِّ، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُسْكِنوا نساءَكم الغُرَفَ، ولا تعلِّموهنَّ الكتابةَ»[٣]. قال علماؤنا: وإنَّما حذَّرهم النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ في إسكانهنَّ الغُرَفَ تطلُّعاً إلى الرجال، وليس في ذلك تحصينٌ لهنَّ ولا تستُّرٌ. وذلك أنهنَّ لا يَملِكْنَ أنفسهنَّ حتى يُشْرِفْنَ على الرجال، فتَحْدُث الفتنةُ والبلاء، فحذَّرهم أن يجعلوا لهنَّ غُرَفاً ذريعةً إلى الفتنة[٤]. وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساءِ خيرٌ لهنَّ مِن ألَّا يراهنَّ الرجالُ، ولا يَرَيْنَ الرجالَ»[٥]. وذلك أنَّها خُلِقَتْ من الرجل، فهمَّتها[٦] في الرجل، والرجلُ خُلِقتْ فيه الشهوةُ، وجُعِلَتْ سَكَناً له، فغيرُ مأمونٍ كلُّ واحدٍ منهما في صاحبه.

وكذلك تعليمُ الكتابةِ ربَّما كانتْ سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابةَ كتَبتْ إلى مَن تَهوَى. والكتابةُ عينٌ من العيون، بها يُبْصِرُ الشاهِدُ الغائبَ، والخطُّ هو آثارُ يده،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ١٧٣ - ١٧٤ من حديث ابن عباس وعائشة، وذكره عن ابن مسعود الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، والكلام منه، وقد سلف الحديث ٥/ ٤٤ ، وينظر الكلام عليه ثَمة.

(٤) العبارة في نوادر الأصول ص ٢٧١ (والكلام منه): فحذرهم من أن يجعلوا لها ذريعة إلى الفتنة.

(٥) أخرجه البزار (٥٢٦)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤١ من حديث علي ﷺ، وفيه أن فاطمة رضي الله عنها هي التي قالت هذا القول، فذكر علي ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنما فاطمة بضعة مني». وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في مختصر زوائد البزار ١/ ٥٦٧ . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٠ من حديث أنس ﷺ. وفي مسألة نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي خلاف بين العلماء، وينظر في ذلك ما ذكره الحافظ في الفتح ٩/ ٣٣٦ .

(٦) في (د) و(م): فنهمتها، وفي (ظ): فتهمتها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في نوادر الأصول.

وفي ذلك تعبيرٌ عن الضمير بما لا يَنْطِق[١] به اللسان، فهو أَبْلغُ من اللسان. فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يَقْطَعَ[٢] عنهنَّ أسبابَ الفتنة؛ تحصيناً لهنَّ، وطهارةً لقلوبهنّ.

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

قيل: «الإنسان» هنا آدمُ عليه السلامُ؛ علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، حَسْبَ ما جاء به القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فلم يَبْقَ شيءٌ إلَّا وعلَّم سبحانه آدمَ اسمَه بكلِّ لغةٍ، وذَكَره آدمُ للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظَهَر فضلُه، وتبيَّن قَدْرُه، وثبَتَتْ نبوَّتُه، وقامت حجةُ اللهِ على الملائكة وحجتُه[٣]، وامتثلتِ الملائكةُ الأمرَ لِمَا رأتْ من شَرَفِ الحال، ورأتْ من جلالِ القدرةِ، وسمعتْ من عظيم الأمر. ثم توارثَتْ ذلك ذرِّيتُه خَلَفاً بعدَ سَلَفٍ، وتَناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة البقرة مستوفًى[٤]، والحمد لله.

وقيل: «الإنسانُ» هنا: الرسولُ محمدٌ ﷺ، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وعلى هذا فالمرادُ بـ «علَّمك» المستقبلُ؛ فإنَّ هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عامٌّ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنَّه نزل في أبي جَهْلٍ. وقيل: نزلت السورةُ كلُّها في أبي جهل؛ نَهَى النبيَّ ﷺ عن الصلاة، فأمر الله نبيَّه ﷺ أنْ يُصلِّيَ في المسجد ويقرأ باسم الربِّ، وعلى هذا فليست السورةُ من أوائل ما نزل.

(١) في (م): ينطلق، والمثبت من النسخ الخطية ونوادر الأصول.

(٢) في النسخ: ينقطع، والمثبت من نوادر الأصول.

(٣) قوله: وحجته، ليس في (د) و(ي).

(٤) ١/ ٤٢٠.

ويجوزُ أن يكون خمسُ آياتٍ من أوَّلها أوّلَ ما نزلت، ثم نزلت البقيةُ في شأن أبي جهل، وأُمر النبيُّ ﷺ بضمِّ ذلك إلى أوّل السورة؛ لأنَّ تأليفَ السُّوَرِ جرى بأمرٍ من الله. أَلَا ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] آخِرُ ما نَزل، ثم هو مضمومٌ إلى ما نزل قَبْلَه بزمانٍ طويل(١).

و«كَلَّا» بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيءٌ. والإنسانُ هنا: أبو جهل. والطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في العصيان.

﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي: لأنْ رأى نفسَه استَغْنَى، أي: صار ذا مالٍ وثروةٍ. وقال ابن عباس في روايةِ أبي صالحٍ عنه، قال: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهلٍ فقال: يا محمدُ، تزعمُ أنه مَن استغنى طغَى! فاجْعَلْ لنا جبالَ مكّةَ ذهباً، لعلّنا نأخذُ منها فنَطْغى، فندع دينَنا ونتَّبع دينك. قال: فأتاه جبريلُ عليه السلامُ فقال: يا محمدُ خيِّرهم في ذلك، فإنْ شاؤوا فعلْنا بهم ما أرادوه، فإنْ لم يُسْلموا فَعَلْنا بهم كما فَعَلْنا بأصحابِ المائدة. فعلم رسولُ الله ﷺ أنَّ القوم يَقْبَلون(٢) ذلك، فكفَّ عنهم إبقاءً عليهم(٣).

وقيل: «أَنْ رَآه اسْتَغْنَى» بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله: «أن رأه»، كما يقال: إنكم لَتَطْغَون أن رأيتُم غِناكم(٤). وقال الفرَّاء: لم يقل: رأى نفسَه، كما قيل: قَتَل نفسَه؛ لأنَّ رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً، نحو الظنِّ والحِسبان، فلا يُقْتَصَر فيه على مفعولٍ واحد. والعربُ تطرحُ النفسَ من هذا الجنس تقول: رأيتُني وحَسِبتُني، ومتى تَرَاكَ خارجاً، ومتى تظنُّكَ خارجاً(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٣٢/ ١٨ .

(٢) في (م): لا يقبلون.

(٣) ذكره بنحوه الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٧١ ، وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٨٦ : لم أجده.

(٤) تفسير الرازي ٣٢/ ١٩ عن الأخفش.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٧٨ ، وتفسير الرازي ٣٢/ ١٩ .

وقرأ مجاهدٌ وحميد، وقنبل عن ابن كثير: «أن رَأَهُ اسْتَغنَى» بقَصْر الهمزة[١]. الباقون: «رآه» بمدِّها، وهو الاختيارُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾

أي: مَرْجِعَ مَن هذا وَصْفُه، فيجازيه. والرُّجْعَى والمَرْجِعُ والرُّجوع مصادِرُ؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجِعاً، ورُجْعَى على وزن فُعلَى.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ وهو أبو جهل ﴿عَبْدًا﴾ وهو محمدٌ ﷺ. فإنَّ أبا جهل قال: إنْ رأيتُ محمداً يصلِّي لأَطأَنَّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرةَ. فأنزل الله هذه الآياتِ تعجُّباً منه[٢].

وقيل: في الكلام حذفٌ، والمعنى: أَمِنَ هذا الناهي عن الصلاةِ مِن العقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾

أي: أَرأيتَ يا أبا جهلٍ إنْ كان محمدٌ على هذه الصِّفة، أليس ناهِيْهِ عن التقوى والصلاةِ هالكاً؟!

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

يعني أبا جهلٍ كذَّب بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وأَعْرَضَ عن الإيمان. وقال الفرَّاء: المعنى: «أرأيتَ الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى» وهو على الهدى، آمرٌ[٣] بالتقوى، والناهي مكذِّبٌ مُتولٍّ عن الذِّكر، أي: فما أَعْجبَ هذا! ثم يقول: وَيْلَه! أَلَمْ يعلم أبو جهلٍ بأنَّ الله يرى[٤]، أي: يراه ويعلمُ فِعْلَه، فهو تقريرٌ وتوبيخٌ.

---

(١) السبعة ص ٦٩٢، والتيسير ص ٢٢٤ عن قنبل.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٨٨٣١)، ومسلم (٢٧٩٧).

(٣) في (م): وآمر، وفي (ظ): أو آمر.

(٤) الوسيط ٤/٥٢٩، وتفسير البغوي ٤/٥٠٨، والكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/٢٧٨ - ٢٧٩.

وقيل: كلٌّ واحدٍ من «أرأيت» بَدَلٌ من الأوّل، و«أَلَمْ يعلم بأنَّ الله يَرَى» الخبرُ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: أبو جهلٍ عن أذاكَ يا محمدُ ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي: لنأخُذَنْ ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلَنُذِلَّنه. وقيل: لنأخذنَّ بناصيته يومَ القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرحُ في النار، كما قال تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. فالآيةُ ـ وإن كانت في أبي جهلٍ ـ فهي عِظةٌ للناس، وتهديدٌ لمن يمتنعُ أو يمنعُ غيرَه عن الطاعة. وأهلُ اللغة يقولون: سَفَعْتُ بالشيء: إذا قبضت عليه وجَذَبته جذباً شديداً، ويقال: سَفَع بناصية فرسِه؛ قال:

قَومٌ إذا كَثُر الصياحُ رأيتَهمْ مِن بينِ مُلْجِمِ مُهْرِهِ أو سافِعِ[1]

وقيل: هو مأخوذٌ من سَفَعَتْه النارُ والشمسُ: إذا غيَّرت وجهَه إلى حالِ تَسْويدٍ، كما قال:

أثافيَّ سُفعاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ونُؤْي كجِذْمِ الحوضِ أَثْلَمَ خاشِعِ[2]

(١) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٣ لعمرو بن معد يكرب، وهو دون نسبة في سيرة ابن هشام ١/ ٣١١، وتهذيب اللغة ٢/ ١٠٨، والصحاح (سفع)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٩، وأساس البلاغة (سفع).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٠١، وللتبريزي ص ١٢٨، برواية: ونؤياً كجذم الحوض لم يتثلم، ورواية الديوان ص ٧: ونؤيًا كحوض الجُدِّ لم يتثلم. قال النحاس: الأثافي: الحجارة التي تجعل عليها القدر، الواحدة: أُثْفيَّة. والسُّفْع السود. والمعرَّس هنا: الموضع الذي يكون فيه المِرْجل، وكل موضع يقام فيه يقال له: معرَّس. والمرجل: كل قِدْرٍ يطبخ فيها. والنؤي: حاجز يجعل حول الخباء يمنع من السيل. وقال شارح الديوان: جذم الحوض: حرفه وأصله. لم يتثلم: يعني النؤي، قد ذهب أعلاه ولم يتثلم ما بقي منه. ونصب أثافيّ بما قبله، وهو قوله: فلأْياً عرفت الدار بعد توهُّم، أراد: بعد تَوهمي أثافيَّ سُفْعاً. وعجز البيت الذي عند المصنف جاء في قصيدة للنابغة في ديوانه ص ٧٩ برواية:

رمادٌ ككحل العينِ لأياً أبينُه ونؤيٌ كجذم الحوض أثلمُ خاشعُ

والخاشع: اللاصق بالأرض.

والناصية: شعرُ مقدَّمِ الرأس. وقد يعبَّر بها عن جملةِ الإنسان، كما يقال: هذه ناصيةٌ مبارَكةٌ؛ إشارةً إلى جميع الإنسان[1]. وخصَّ الناصيةَ بالذِّكرِ على عادة العربِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه أخذوا بناصيته.

وقال المبرِّد: السَّفْع: الجذبُ بشدَّةٍ؛ أي: لَنَجُرَّنَّ بناصيته إلى النار.

وقيل: السَّفْعُ: الضَّرْبُ، أي: لنلطُمَنَّ وجهَه. وكلُّه متقارِبُ المعنى. أي: يُجمَعُ عليه الضربُ عند الأَخْذِ، ثم يجرُّ إلى جهنم.

ثم قال على البدَلِ: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: ناصية أبي جهلٍ كاذبة في قولها، خاطئة في فِعْلِها. والخاطئُ معاقَبٌ مأخوذٌ. والمخطئُ غيرُ مأخوذٍ.

ووصفُ الناصيةِ بالكاذبةِ الخاطئة، كوَصْفِ الوجوهِ بالنَّظَرِ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]. وقيل: أي: صاحبُها كاذبٌ خاطِئٌ، كما يقال: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائم، أي: هو صائمٌ في نهاره، قائمٌ في ليله[2].

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: أهلَ مجلسِه وعشيرته، فليَسْتَنْصِرْ بهم. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكةَ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ عن ابن عباس وغيره[3]. واحدُهم زِبْنِيٌّ؛ قاله الكسائيُّ[4]. وقال الأخفش[5]: زابِنٌ. أبو عبيدةَ: زِبْنِيَة[6]. وقيل: زَبَانيّ. وقيل: هو اسمٌ للجمع، كالأبابيل والعباديد[7].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٠٨ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٤٥ .

(٣) ذكره الزجاج ٥/ ٣٤٦ دون نسبة، وابن الجوزي ٩/ ١٧٩ عن عطاء.

(٤) ذكره عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٧٤١ .

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٣٠٤ .

(٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٧٤١ .

وقال قتادةُ: هم الشُّرَطُ في كلام العرب(١). وهو مأخوذٌ من الزَّبْن وهو الدَّفْعُ، ومنه المُزابنةُ في البيع(٢).

وقيل: إنَّما سُمُّوا الزبانيةَ لأنَّهم يعملون بأَرْجُلِهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقنديُّ رحمه الله، قال: ورُوِي في الخبر أنَّ النبيَّ ﷺ لـمَّا قرأ هذه السورةَ، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عنِّي ربَّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾. فلمَّا سمع ذِكْرَ الزبانيةِ رجع فزِعاً، فقيل له: خَشِيتَ منه؟! قال: لا، ولكنْ رأيتُ عنده فارساً فهدَّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانيةُ؟ ومالَ إليَّ الفارس، فخشِيتُ منه أن يأكلني(٣).

وفي الأخبار أنَّ الزبانيةَ رؤوسُهم في السماء وأرجلُهم في الأرض(٤)، فهم يدفعون الكفارَ في جهنم.

وقيل: إنَّهم أعظمُ الملائكةِ خَلْقًا، وأشدُّهم بطشاً. والعربُ تُطْلِق هذا الاسمَ على مَن اشتدَّ بطشُه، قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مَطاعينُ في الوَغَى زَبانيةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حلُومُها(٥)

وعن عكرمةَ عن ابن عباس: «سَنَدْع الزَّبانِية» قال: قال أبو جهل: لئن رأيتُ محمداً يصلِّي لأطأنَّ على عنقه. فقال النبيُّ ﷺ: «لو فعل لأَخَذَتْه الملائكةُ عِياناً». قال

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٨٤ .

(٢) المزابنة: بيع الرُّطَب على رؤوس النخل بالتمر كيلاً، وكذلك كل ثمر بيع على شجرة بثمر كيلاً، ونهي عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة، ولأن البيِّعَيْن إذا وقفا فيه على الغبن أراد المغبون أن يفسخ البيع، وأراد الغابن أن يمضيه، فتزابنا فتدافعا واختصما. ينظر اللسان (زبن).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٩٥ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٥٤٠ عن عبد الله بن أبي الهذيل قوله.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٠٨ - ٣٠٩ ، والبيت لابن الزِّبَعْرى، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٣١٢ ، وفيه المَقْرَى، بدل: القصوى. الغُلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة، وهم يَصِفون السادة بغلظ الرقبة وطولها. اللسان (غلب).

أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ(١).

ورَوى عِكرمةُ عن ابن عباس قال: مرَّ أبو جهل بالنبيِّ ﷺ وهو يصلِّي عند المَقام، فقال: أَلَمْ أَنْهكَ عن هذا يا محمد! فأَغْلَظَ له رسولُ الله ﷺ، فقال أبو جهل: بأيِّ شيءٍ تهدِّدني يا محمد! والله إنِّي لأكثرُ أهلِ الوادي هذا ناديًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ . سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأَخَذَتْه زبانيةُ العذابِ من ساعته. أخرجه الترمذيُّ بمعناه، وقال: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ(٢).

والنادي في كلام العرب: المجلسُ الذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون، والمرادُ: أهلُ النادي، كما قال جرير:

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أَذِلَّةٌ(٣)

وقال زهير:

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسانٌ وُجُوههم(٤)

وقال آخر:

واسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيبُ المجلِسُ(٥)

وقد ناديتُ الرجلَ أُنادِيه: إذا جالسته؛ قال زهير:

(١) سنن الترمذي (٣٣٤٨)، وهو عند أحمد (٢٢٢٥)، والبخاري (٤٩٥٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣٤٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٣٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٠)، والطبري ٢٤/ ٥٣٧.

(٣) وعجزه: سواسيةٌ أحرارُها وعبيدها، والبيت لذي الرمة في ديوانه ٢/ ١٢٣٥، وليس لجرير كما ذكر المصنف نقلاً عن الكشاف ٤/ ٢٧٢، على أن الزمخشري ذكره في أساس البلاغة (جلس) ونسبه لذي الرمة. قال شارح الديوان: قوله: صهب السبال، أي: هم عجم، ليسوا بعرب، ولا يقال: سواسية، إلا في الهجاء. أما في الخير فيقال: سواء. اهـ. والسبال جمع سَبَلة، وهي ما على الشارب من الشعر، أو ما على الذقن إلى طرف اللحية. والصَّهَب: حمرة أو شقرة في الشعر، والأعداء صُهْب السبال وإن لم يكونوا كذلك. القاموس (صهب) و(سبل).

(٤) ديوان زهير ص ١١٣، والكشاف ٤/ ٢٧٢، وعجزه: وأندية ينتابها القول والفعل. وسلف ٢/ ٣٧٤.

(٥) وصدره: نُبِّئتُ أن النار بعدك أُوْقِدَتْ، والبيت للمهلهل بن ربيعة، وسلف ١/ ٢٣٩.

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادي أمامَ الحيِّ عَقْدُهما سَواءُ(١)

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر على ما يظنُّه أبو جهل. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: فيما دعاك إليه مِن تَركِ الصلاة. ﴿وَٱسْجُدْ﴾ أي: صلِّ لِله ﴿وَٱقْتَرِب﴾ أي: تقرَّبْ إلى الله جلَّ ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدتَ فاقتربْ من الله بالدعاء؛ روى عطاءٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبد من ربِّه، وأحبُّه إليه، ما كانت جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله»(٢).

قال علماؤنا: وإنما ذلك لأنَّها نهايةُ العبوديةِ والذِّلَّة، ولله غايةُ العِزَّة، وله العزةُ التي لا مِقْدارَ لها، فكلَّما بَعُدْتَ من صِفَتِه، قربتَ مِن جنَّته، ودَنَوْت من جِوَاره في دارِه(٣). وفي الحديث الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أمَّا الركوعُ فعظِّموا فيه الربَّ. وأمَّا السجودُ فاجتهِدوا في الدعاء، فإنه قَمِنٌ أن يُسْتجابَ لكُم»(٤). ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

وإذا تذلَّلتِ الرقابُ تواضُعًا منَّا إليك فعِزُّها في ذلِّها(٥)

وقال زيد بن أسلم: اسجُدْ أنت يا محمدُ مصلِّياً، واقترِبْ أنت يا أبا جهلٍ من النار(٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ﴾ هذا السجودُ يحتملُ أن يكون بمعنى السجودِ في الصلاة، ويحتملُ أن يكون سجودَ التلاوةِ في هذه السورة. قال ابن العربيّ: والظاهِرُ أنه سجودُ

---

(١) ديوان زهير ص ٨٠ .

(٢) أخرجه الحاكم ٢/ ٦٩٠ ، وذكره المزي في تهذيب الكمال ٧/ ٣٧٣ ، وفي إسناده حميد بن أبي سويد المكي، قال عنه الحافظ في التقريب: مجهول. اهـ. واللفظ الصحيح عند مسلم (٤٨٢) وهو: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» وقد سلف ١٢/ ٢٦٣ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٤٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وسلف ١/ ٢٦٥ .

(٥) البيت لأبي إسحاق الصابي، وسلف ١١/ ١٢٩ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٠٩ .

الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، لولا ما ثبت في الصَّحيح من روايةِ مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدتُ مع رسولِ الله ﷺ في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، وفي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ سجدتين. فكان هذا نصًّا على أنَّ المراد سجودُ التلاوة[1].

وقد رَوى ابنُ وهبٍ، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: عزائمُ السجودِ أربع: «ألم» و«حم. تنزيل من الرحمن الرحيم» و«النجم» و«اقرأ باسم ربك»[2]. وقال ابن العربيّ[3]: وهذا إنْ صحَّ يلزمُ عليه السجودُ الثاني من سورة الحج وإنْ كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه: اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود. وقد قال ابن نافع ومطَرِّفٌ: وكان مالكٌ يسجدُ في خاصةِ نَفْسِه بخاتمةِ هذه السورة من «اقرأ باسم ربِّك» وابنُ وهبٍ يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، عن نافع، عن ابن عمر قال: لمَّا أنزل الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتُبْها يا معاذ» فأخذ معاذٌ اللوحَ والقلم والنونَ ـ وهي الدواةُ ـ فكتبها معاذ، فلمَّا بلغ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩﴾ سجد اللوحُ، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهمَّ ارْفَعْ به ذِكراً، اللهمَّ احْطُطْ به وِزراً، اللهم اغفِرْ به ذنباً. قال معاذ: سجدتُ، وأخبرتُ رسولَ الله ﷺ فسجد[4].

خُتمت السورةُ، والحمد لله على ما فَتَحَ ومَنَحَ وأَعْطَى. وله الحمدُ والمِنَّة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٤٨، والحديث في صحيح مسلم (٥٧٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٤٨، وأخرجه الحاكم ٢/٥٢٩ من طريق سفيان عن عاصم به. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥٨٤) بإسناد آخر عن علي ﷺ.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٩٤٨.

(٤) ذكره الحافظ في لسان الميزان ١/١٠٠، وفي إسناده إبراهيم بن محمد الآمدي الخواص، قال عنه ابن طاهر: أحاديثه موضوعة. وينظر الميزان ١/٦٢.

تفسير سورة اقـرأ

وهى أول شىء نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ــ وهو : التعبد ــ الليالى ذواتَ العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فَتُزَوِّد (١) لمثلها حتى فَجَأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » . قال : «فأخذنى فَغَطَّنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال: اقرأ . فقلت :ما أنا بقارئ . فَغَطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال: **﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾** حتى بلغ :**﴿ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾** » قال : فرجع بها تَرجُف بَوادره (٢) حتى دخل على خديجة فقال: « زملونى زملونى ». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال : يا خديجة ، ما لى : فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على » . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بن نوفل بن أسَد بن عبد العُزى ابن قُصى ــ وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية من الإنجيل (٣) ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِىَ ــ فقالت خديجة : أىّ ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابنَ أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى (٤) ، ليتنى (٥) فيها جَذَعا أكونُ حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجىَّ هُم ؟ » . فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به (٦) إلا عودى ، وإن يُدركنى يومك أنصُرْكَ نصراً مُؤزراً . [ثم] (٧) لم ينشَب وَرَقة أن تُوُفِّى ، وفَتَر الوحى فترة حتى حَزِن رسول الله ﷺ ــ فيما بلغنا ــ حزناً غدا منه مرارا كى يَتَردى من رؤوس شَوَاهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه ، تبدى له

(١) فى م ، أ : « فتزوده » .
(٢) فى أ : « يرجف فؤاده » .
(٣) فى م ، : « وكتب من الإنجيل بالعربية » .
(٤) فى أ : « على عيسى » .
(٥) فى م : « يا ليتنى » .
(٦) فى أ : « بمثل ما جئت به » .
(٧) زيادة من م ، أ ، والمسند .

جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتَقَرُّ نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تَبَدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى (١) ، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه فى أول شرحنا للبخارى مستقصى ، فمن أراده فهو هناك محرر ، ولله الحمد والمنة .

فأول شىء [نزل] (٢) من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات (٣) ، وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون فى الأذهان ، وتارة يكون فى اللسان ، وتارة يكون فى الكتابة بالبنان ، ذهنى ولفظى ورسمى ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ . وفى الأثر : قيدوا العلم بالكتابة (٤) . وفيه أيضاً : « من عمل بما علم رزقه (٥) الله علم ما لم يكن [يعلم] (٦) » .

﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)** ﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تَهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ **إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ** ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟

قال ابن أبى حاتم : حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو عُمَيس، عن عون قال : قال عبد الله : مَنهومان لا يشبعان ، صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ،

---

(١) المسند (٦/ ٢٣٢) وصحيح البخارى برقم (٣، ٤، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢، ٤٩٥٥، ٣٣٩٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٠) .

(٢) زيادة من م ، أ .　　　(٣) فى م : « المباركة » .

(٤) جاء عن عمر ــ رضى الله عنه ــ موقوفاً ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) وابن أبى شيبة فى المصنف (٩/ ٤٩) والدارمى فى السنن برقم (٥٠٣) . وعن أنس موقوفاً ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) والرامهرمزى فى المحدث الفاصل (ص٣٦٨) ، وجاء مرفوعاً من حديث أنس ، رواه الخطيب فى تقييد العلم (ص٧٠) والرامهرمزى فى المحدث الفاصل (ص٣٦٨) . ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٠٦) وابن عبد البر فى جمع بيان العلم (١/ ٧٣) والموقوف أصح.

(٥) فى م : « أورثه » .　　　(٦) زيادة من م ، أ .

فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان . قال : ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ . وقال للآخر : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٨] .

وقد رُوى هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ:«منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ . عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ : نزلت فى أبى جهل ،لعنه الله ، توعد النبى ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هى أحسن أولا ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ؛ ولهذا قال :﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴾ أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء .

ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أى : لَنَسمَنَّها سوادا يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ يعنى : ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعَالها .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلبُ : أحزبُنا أو حزبه .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن عبد الكريم الجَزَرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عُنُقه . فبَلَغَ النبى ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . ثم قال : تابعه عمرو بن خالد ، عن عبيد الله ــ يعنى ابن عمرو ــ عن عبد الكريم (٢) .

وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما من طريق عبد الرزاق ، به (٣) . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن زكريا بن عَدِىّ ، عن عبيد الله بن عمرو ، به (٤) .

وروى أحمد ، والترمذى (٥) ، وابن جرير ــ وهذا لفظه ــ من طريق داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ ــ وتَوعَّده ــ فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال :يا محمد ،

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٩٢) من طريق قتادة ، عن أنس به مرفوعاً ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٢٣) من طريق زيد بن وهب ، عن ابن مسعود به مرفوعاً ، وفى إسناده ضعيف .

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٩٥٨) .

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٥) .

(٤) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) .

(٥) فى م ، أ : « والترمذى والنسائى » .

بأى شيء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته [١]. وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد ،حدثنا فُرَات ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا » [٢] .

وقال ابن جرير أيضا :حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح ، أخبرنا يونس بن أبى إسحاق، عن الوليد بن العيزار ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلى عند المقام لأقتلنه . فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . [خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ] [٣] ﴾ ، حتى بلغ هذه الآية: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾. فجاء النبى ﷺ فصلى [٤] فقيل : ما يمنعك ؟ قال : قد اسودَّ ما بينى وبينه من الكتائب . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه [٥] .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، عن أبيه ، حدثنا نعيم بن أبى هند ، عن أبى حازم ، عن أبى هُرَيرة قال : قال أبو جهل :هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته [٦] ، ولأعفِّرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلى ليطأ على رقبته ، قال : فما فَجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خَنْدقا من نار وهَولا وأجنحة. قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله ــ لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا ــ : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ إلى آخر السورة .

وقد رواه أحمد بن حنبل ،ومسلم، والنسائى ، وابن أبى حاتم ، من حديث معتمر بن سليمان، به [٧] .

وقوله : ﴿ كَلاَّ لا تُطِعْهُ ﴾ يعنى : يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصلِّ حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح ــ عند مسلم ــ من طريق عبد الله بن وهب ، عن

---

(١) المسند (١/ ٣٢٩) وسنن الترمذى برقم (٣٣٤٩) وتفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٤) .
(٢) المسند (١/ ٢٤٨) .
(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « يصلى » .
(٥) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) .
(٦) فى م : « على عنقه » .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٦٥) والمسند (٢/ ٣٧٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٨٣) .

عمرو بن الحارث ، عن عمارة بن غزية ، عن سُمَىّ ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » (١) .

وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .

آخر تفسير سورة « اقرأ » (٢)

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٨٢) .

(٢) فى م ، أ : « آخر تفسيرها » .

٩٦ ـ سورة العلق
(مكية وهى تسعة عشر آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ باسم ربك الذى خلق (١) ٩٦ العلق

خلق الإنسان من علق (٢) ٩٦ العلق

﴿سورة العلق مكية وآيها تسع عشرة﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (اقرأ) أى مايوحى إليك فإن الأمر بالقراءة يقتضى المقروء قطعاً وحيث لم يعين وجب أن يكون ذلك ما يتصل بالأمر حتماً سواء كانت السورة أول ما نزل أولا والأقرب أن هذا إلى قوله تعالى مالم يعلم أول ما نزل عليه عليه الصلاة والسلام كما ينطق به حديث الزهرى المشهور وقوله تعالى (باسم ربك) متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل أى اقرأ ملتبساً باسمه تعالى *
أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى (الذى خلق) لتذكير *
أول النعماء الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ماهو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن سائر الكمالات قادر على تعليم القراءة للحى العالم المتكلم أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل
٢ شىء وقوله تعالى (خلق الإنسان) على الأول تخصيص لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وعلى الثانى إفراد للإنسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم لشأنه إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق الإنسان ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى (من علق) *
أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة من التباين البين وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان فى معنى الجمع لمراعاة الفواصل ولعله هو السر فى تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٩٦ العلق

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ٩٦ العلق

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ٩٦ العلق

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ ٩٦ العلق

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ٩٦ العلق

وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته تعالى بذلك أولا
٣ ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الأمر بقوله تعالى (اقرأ) أى افعل
* ما أمرت به تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (وربك الأكرم) الخ فإنه كلام مستأنف
وارد لإزاحة ما بينه عليه السلام من العذر بقوله عليه السلام ما أنا بقارىء يريد أن القراءة شأن من
٤ يكتب ويقرأ وأنا أمى فقيل له وربك الذى أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه هو الأكرم (الذى علم
بالقلم) أى علم ما علم بواسطة القلم لاغيره فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما وقوله
٥ تعالى (علم الإنسان مالم يعلم) بدل اشتمال من علم بالقلم أى علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية
والجلية والخفية مالم يخطر بباله وفى حذف المفعول أولا وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانياً من
الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم مالاتحيط به العقول مالا
٦ يخفى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة فى الزجر وقوله تعالى
* (إن الإنسان ليطغى) أى ليجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا
٧ إلى آخر السورة نزل فى أبى جهل بعد الزمان وهو الظاهر وقوله تعالى (أن رآه استغنى) مفعول له
أى يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً على أن استغنى مفعول ثان لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون
فاعله ومفعوله ضميرى واحد كما فى علمتنى وإن جوزه بعضهم فى الرؤية البصرية أيضاً وجعل من ذلك
قول عائشة رضى الله عنها لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الأسودان
وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبىء عنه قوله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى
الأرض للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد . روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع
دينك فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مافعلنا بأصحاب
المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم وقوله تعالى :

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ ٩٦ العلق

عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ ٩٦ العلق

أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ٩٦ العلق

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ٩٦ العلق

(إن إلى ربك الرجعى) تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان والالتفات للتشديد فى التهديد والرجعى ٨
مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى وتقديم الجار والمجرور عليه لقصره عليه أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا فسترى حينئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى
(أرأيت الذى ينهى) (عبداً إذا صلى) تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة ١٠،٩
والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب. روى أن أبا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش لئن رأيت محمداً يصلى لأطأن عنقه فرآه عليه السلام فى الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك قال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فنزلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية وأما ما فى قوله تعالى
(أرأيت إن كان على الهدى) (أو أمر بالتقوى) وما فى قوله تعالى (أرأيت إن كذب وتولى) ١٣،١٢،١١
فقلبية معناه أخبرنى فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صلح للخطاب ونظم الأمر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار نفس الأفعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل فإن ذلك ليس فى حيز التردد أصلا بل باعتبار أوصافها التى هى كونها أمراً بالتقوى وتكذيباً وتولياً كما فى قوله تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به كما مر والمفعول الأول لأرأيت محذوف وهو ضمير يعود إلى الموصول أو اسم إشارة يشار به إليه ومفعوله الثانى سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فإن المفعول الثانى لأرأيت لا يكون إلا جملة استفهامية أو قسمية والمعنى أخبرنى ذلك الناهى إن كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده
أو مكذباً للحق معرضاً عن الصوب كما نقول نحن (ألم يعلم بأن الله يرى) أى يطلع على أحواله فيجازيه ١٤

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ٩٦ العلق

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ٩٦ العلق

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ٩٦ العلق

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ٩٦ العلق

بها حتى أجترأ على مافعل وإنما أفرد التكذيب والتولى بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار مستأنف ولم ينظما فى سلك الشرط الأول بعطفهما على كان للإيذان باستقلالهما بالوقوع فى نفس الأمر واستتباع الوعيد الذى ينطق به الجواب وأما القسم الأول فأمر مستحيل قد ذكر فى حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر فى تجريد الشرطية الأولى عن الجواب والإحالة به على جواب الثانية هـذا وقد قيل أرأيت الأول بمعنى أخبرنى مفعوله الأول الموصول ومفعوله الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وأرأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد ومعناه أخبرنى عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح كما نقول نحن ألم يعلم بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتأمل وقيل المعنى أرأيت الذى ينهى عبداً يصلى والمنهى عن الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول فما أعجب من ذا وقيل الخطاب الثانى للكافر فإنه تعالى كالحاكم الذى حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه قال يا كافر أخبرنى إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله تعالى أمراً بالتقوى أتنهاه وقيل هو أمية بن خلف

١٥ كان ينهى سلمان عن الصلاة (كلا) ردع للناهى اللعين وخسوء له واللام فى قوله تعالى (لئن لم ينته) موطئة للقسم أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر (لنسفعا بالناصية) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع القبض على الشىء وجذبه بعنف وشدة وقرىء لنسفعن بالنون المشددة وقرىء لأسفعن وكتبته فى المصحف بالألف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة لظهور أن

١٦ المراد ناصية المذكور (ناصية كاذبة خاطئة) بدل من الناصية وإنما جاز إبدالها من المعرفة وهى نكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هى ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطأ

١٧ على الإسناد المجازى وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ماليس فى قولك ناصية كاذب المخطىء (فليدع ناديه) أى أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذى ينتدى فيه القوم أى يجتمعون. روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٨ فقال أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى نادياً فنزلت (سندع الزبانية) ليجروه إلى النار والزبانية

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ٩٦ العلق

الشرط الواحد زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبنى وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير كأمسى
وأصلها زبانى فقيل زبانية بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب وعن النبي صلى الله عليه
١٩ وسلم لودعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً (كلا) ردع بعد ردع وزجر إثر زجر (لا تطعه) أى دم
على ما أنت عليه من معاصاته (واسجد) وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به (واقترب) *
وتقرب بذلك إلى ربك وفى الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد. عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله.



وتسمى سورة اقرأ، لا خلاف في مكيتها وإنما الخلاف في عدد آيها ففي الحجازي عشرون آية، وفي العراقي تسع عشرة، وفي الشامي ثماني عشرة، وفي أنها أول نازل أو لا فذهب كثير إلى أنها أول نازل، فقد أخرج الطبراني في الكبير بسنده على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى الأشعري يقرئنا فيجلسنا حلقاً عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١] قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد رسول الله ﷺ. وقد أخرج الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل وصححاه عن عائشة نحوه. وأخرج غير واحد عن مجاهد قال: أول ما نزل من القرآن **﴿اقرأ باسم ربك﴾** ثم ﴿ن والقلم﴾ [القلم: ١] وروى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل أولاً؟ قال: يا أيها المدثر، قلت: يقولون اقرأ باسم ربك قال: أحدثكم بما حدثنا به رسول الله ﷺ، فساق الحديث مستدلاً به على ما ادعاه وأجاب عنه الأولون بعدة أجوبة مر ذكرها وقيل الفاتحة. واحتج له بحديث مرسل رجاله ثقات أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمر عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، وأجيب عنه بأن ما فيه يحتمل أن يكون خبراً عما نزل بعد اقرأ ويا أيها المدثر، مع أن غيره أقوى منه رواية وجزم جابر بن زيد بأن أول ما نزل اقرأ، ثم ن، ثم يا أيها المزمل، ثم يا أيها المدثر، ثم الفاتحة. وقيل أول ما نزل صدرها إلى ما لم يعلم في غار حراء ثم نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى وهو ظاهر ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان وعبد بن حميد وعبد الرزاق وغيرهم من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة في حديث بدء الوحي، وفيه: «فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**» فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره إلى أن قالت: ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، وفي آخر ما رووا قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] فحمي الوحي وتتابع». ويعلم منه ضعف الاستدلال على كون سورة المدثر أول نازل من القرآن على الإطلاق بما روي أولاً عن جابر المذكور كما لا يخفى على الواقف عليه، وقد ذكرناه صدر الكلام في سورة المدثر لقوله فيه وهو يحدث عن فترة الوحي وقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وقوله «فحمي الوحي وتتابع» أي بعد فترته

وبالجملة الصحيح كما قال البعض وهو الذي أختاره أن صدر هذه السورة الكريمة هو أول ما نزل من القرآن على الإطلاق كيف وقد ورد حديث بدء الوحي المروي عن عائشة من أصح الأحاديث وفيه فجاءه الملك فقال اقرأ فقال قلت «ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد» الخ. والظاهر أن ما فيه نافية بل قال النووي هو الصواب وذلك إنما يتصور أولاً وإلاّ لكان الامتناع من أشد المعاصي ويطابقه ما ذكره الأئمة في باب تأخير البيان وسنشير إليه إن شاء الله تعالى. وفي الكشف الوجه حمل قول جابر على السورة الكاملة وفي شرح صحيح مسلم الصواب أن أول ما نزل ﴿**اقرأ**﴾ أي مطلقاً، وأول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿**يا أيها المدثر**﴾ وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر انتهى. وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله والله تعالى أعلم. ولما ذكر سبحانه في سورة التين خلق الإنسان في أحسن تقويم بيّن عز وجل هنا أنه تعالى خلق الإنسان من علق فكان ما تقدم كالبيان للعلة الصورية، وهذا كالبيان للعلة المادية. وذكر سبحانه هنا أيضاً من أحواله في الآخرة ما هو أبسط مما ذكره عز وجل هناك فقال سبحانه وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ**﴾ أي ما يوحى إليك من القرآن فالمفعول مقدّر بقرينة المقام كما قيل وليس الفعل منزلاً منزلة اللازم ولا أن مفعوله قوله تعالى ﴿**بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ على أن الباء زائدة كما قال أبو عبيدة وزعم أن المعنى اذكر ربك، بل هي أصلية ومعناها الملابسة وهي متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالاً كما روي عن قتادة. والمعنى ﴿**اقرأ**﴾ مبتدئاً أو مفتتحاً ﴿**باسم ربك**﴾ أي قل بسم الله ثم اقرأ وهو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عز وجل لم يكن ممتثلاً، واستدل بذلك على أن البسملة جزء من كل سورة وفيه بحث وكذا الاستدلال به على أنها ليست من القرآن للمقابلة إذ لقائل أن يقول إنها تخصص القرآن المقدر مفعولاً بغيرها. وبعضهم استدل على أنها ليست بقرآن في أوائل السور بأنها لم تذكر فيما صح من أخبار بدء الوحي الحاكية لكيفية نزول هذه الآيات كذا أفاده النووي عليه الرحمة، ثم قال: وجواب المثبتين أنها لم تنزل أولاً بل نزلت في وقت آخر كما نزل باقي السورة كذلك وهذا خلاف ما أخرج الواحدي عن عكرمة والحسن أنهما قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم، وأول سورة اقرأ. وكذا خلاف ما أخرجه ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: أول ما نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ قال: يا محمد استعذ. ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم، وقد عد القول بأنها أول ما نزل أحد الأقوال في تعيين أول منزل من القرآن. وقال الجلال السيوطي: إن هذا القول لا يعد عندي قولاً برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول

البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق وفيه منع ظاهر كما لا يخفى. وجوز كون الباء للاستعانة متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالاً ورجحت الملابسة بسلامتها عن إيهام كون اسمه تعالى آلة لغيره وقد تقدم ما يتعلق بذلك أول الكتاب. ثم إنه ليس في الأمر المذكور تكليف بما لا يطاق سواء دل الأمر على الفور أم لا لأنه ﷺ علم أن ما أوحى قرآن فهو المكلف بقراءته عليه الصلاة والسلام ولا محذور في كون اقرأ الخ مأموراً بقراءته لصدق المأمور بقراءته عليه، وهذا كما تقول لشخص: اسمع ما أقول لك، فإنه مأمور بسماع هذا اللفظ أيضاً. وقد ذكر جمع من الأصوليين أن هذا بيان للمأمور به في قول جبريل عليه السلام ﴿**اقرأ**﴾ المذكور في حديث بدء الوحي المتفق عليه. قال الآمدي عند ذكر أدلة جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب الذي ذهب إليه جماعة من الحنفية وغيرهم: ومن الأدلة ما روي أن جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ ﴿**اقرأ**﴾ قال: «وما اقرأ»؟ كرر عليه ثلاث مرات ثم قال له ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾ فأخر بيان ما أمره به أولاً مع إجماله إلى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل عليه السلام وسؤال النبي ﷺ مع إمكان بيانه أولاً وذلك دليل جواز التأخير إلى آخر ما قال سؤالاً وجواباً لا يتعلق بهما غرضنا، ولا يخفى أن يكون هذا بياناً للمراد على الوجه الذي ذكرناه ظاهر وكونه كذلك بجعل ﴿**اقرأ باسم ربك**﴾ إلى آخر ما نزل أو ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ**﴾ الخ ما ادعاه الجلال معمولاً لاقرأ المكرر في كلام جبريل عليه السلام مما لا أظن أن أصولياً يقول به، ومثله كونه كذلك بحمل الآية على ما سمعت عن أبي عبيدة. وأما بناء الاستدلال على ما في بعض الآثار من أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ وهو بحراء بنمط من ديباج مكتوب فيه ﴿**اقرأ باسم ربك ــ إلى ــ ما لم يعلم**﴾ فقال له: اقرأ فقال عليه الصلاة السلام «ما أنا بقارىء» قال: اقرأ باسم ربك بأن يكون اقرأ الخ بياناً وتلاوة من جبريل عليه السلام لما في النمط المنزل لعدم العلم بما فيه وإن كان مشاهداً منزلة المجمل الغير المعلوم فلا يخفى حاله فتأمل. ثم إن في كلام الآمدي من حيث رواية الخبر ما فيه فلا تغفل. والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره ﷺ للإشعار بتبليغه عليه الصلاة والسلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر.

ووصف الرب بقوله تعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ**﴾ لتذكيره عليه الصلاة والسلام أول النعماء الفائضة عليه ﷺ منه سبحانه مع ما في ذلك من التنبيه على قدرته تعالى على تعليم القراءة بألطف وجه، وقيل: لتأكيد عدم إرادة غيره تعالى من الرب فإن العرب كانت تسمي الأصنام أرباباً لكنهم لا ينسبون الخلق إليها والفعل إما منزل اللازم أي الذي له الخلق، أو مقدر مفعوله عاماً أي الذي خلق كل شيء. والأول يفيد العموم أيضاً فعلى الوجهين يكون وجه تخصيص الإنسان بالذكر في قوله تعالى ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ**﴾ أنه أشرف المخلوقات وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه فهو أدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة مع أن التنزيل إليه، ويجوز أن يراد خلق الإنسان إلاّ أنه لم يذكر أولاً وذكر ثانياً قصداً لتفخيمه بالإبهام ثم التفسير. وعن الزمخشري أن المناسب أن يراد خلق الإنسان بعد الأمر بقراءة القرآن تنبيهاً على أنه تعالى خلقه للقراءة والدراية كما أن ذكر خلق الإنسان عقيب تعليم القرآن أول سورة الرحمن لنحو ذلك. وقوله تعالى ﴿**مِنْ عَلَقٍ**﴾ أي دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالتيه الأولى والآخرة من التباين البين، وأتى به دالاً على الجمع لأن الإنسان مراد به الجنس فهو في معنى الجمع فأتى بما خلق منه كذلك ليطابقه مع ما في ذلك من رعاية الفواصل، ولعله على ما قيل السر في تخصيص هذا الطور من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية من كون النطفة والتراب

أدل على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية. وفي البحر لم يذكر سبحانه مادة الأصل آدم يعني آدم عليه السلام وهو التراب لأن خلقه من ذلك لم يكن متقرراً عند الكفار فذكر مادة الفرع وخلقه منها وترك مادة أصل الخلقة تقريباً لإفهامهم وهو على ما فيه لا يحسم مادة السؤال. وقيل: خص هذا الطور تذكيراً له عليه الصلاة والسلام لما وقع من شرح الصدر قبل النبوة وإخراج العلق منه ليتهيأ تهيئاً تاماً لما يكون له بعد فكأنه قيل الذي خلق الإنسان من جنس ما أخرجه من صدرك الشريف ليهيئك بذلك لمثل ما يلقى إليك الآن وبهذا تقوى مناسبة هذه السورة لسورة الشرح قبلها أتم مناسبة لا سيما على تفسير الشرح بالشق فتدبره. ومن الناس من زعم أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأن المعنى خلق آدم من طين يعلق باليد وهو مما لا تعلق به يد القبول، ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدم الدلائل الدالّة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته سبحانه وصف ذاته تعالى بذلك أولاً ليستشهد عليه الصلاة والسلام به على تمكينه تعالى له من القراءة.

ثم كرر جل وعلا الأمر بقوله تعالى ﴿**اقْرَأْ**﴾ أي افعل ما أمرت به تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ الخ فإنه كلام مستأنف وأراد لإزاحة ما بيّنه ﷺ من العذر بقوله عليه السلام لجبريل عليه الصلاة والسلام حين قال له اقرأ فقال: «ما أنا بقارىء» يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمي فقيل ﴿**وربك**﴾ الذي أمرك بالقراءة مفتتحاً ومبتدأ باسمه ﴿**الأكرم**﴾ ﴿**الَّذي عَلَّمَ بالقَلَم**﴾ أي علم ما علم بواسطة القلم لا غيره تعالى، فكما علم سبحانه القارىء بواسطة الكتابة بالقلم يعلمك بدونها. وحقيقة الكرم إعطاء ما ينبغي لا لغرض فهو صفة لا يشاركه تعالى في إطلاقها أحد فافعل للمبالغة وجوز أن لا يكون اقرأ هذا تأكيداً للأول وإنما ذكر ليوصل به ما يزيح العذر. فجملة ﴿**وربك**﴾ الخ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه. وقوله تعالى ﴿**عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ بدل اشتمال من علم بالقلم أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله، في حذف المفعول أولاً وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه عز وجل والإشعار بأنه تعالى يعلمه عليه الصلاة والسلام من العلوم ما لا يحيط به العقول ما لا يخفى قاله في الإرشاد. وقدر بعضهم مفعول علم الخط وجعل بالقلم متعلقاً به وأيد بقراءة ابن الزبير الذي علم الخط بالقلم حيث صرح فيها بذلك وقال الجبائي إن ﴿**اقرأ**﴾ الأول أمر بالقراءة لنفسه وقيل مطلقاً والثاني أمر بالقراءة للتبليغ، وقيل في الصلاة المشار إليها فيما بعد. وجملة ﴿**وربك**﴾ الخ تحتمل الحالية والاستئنافية، وحاصل المعنى على إرادة القراءة للتبليغ في قول بلغ قومك ﴿**وربك الأكرم**﴾ الذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه ويقويك على حفظ القرآن لتبلغه. وأولى الأوجه وأظهرها التأكيد وأبعد بعضهم جداً فزعم أن بسم في البسملة متعلق باقرأ الأول، وباسم ربك متعلق باقرأ الثاني ليفيد التقديم اختصاص اسم الله تعالى بالابتداء. وجوز أيضاً أن يبقى باسم الله على ما هو المشهور فيه واقرأ أمر بإحداث القراءة وباسم ربك متعلق باقرأ الثاني لذلك ولا يخفى أن الظاهر تعلق باسم ربك بما عنده وتقديم الفعل ها هنا أوقع لأن السورة المذكورة على ما سبق من التصحيح أول سورة نزلت فالقراءة فيها أهم نظراً للمقام. وقيل إنه لو سلم كون غيرها نازلاً قبلها لا يضر في حسن تقديم الفعل لأن المعنى كما سمعت عن قتادة اقرأ مفتتحاً باسم ربك أي قل باسم الله ثم اقرأ فلو افتتح بغير البسملة لم يكن ممتثلاً فضلاً عن أن يفتتح بما يضادها من أسماء الأصنام، ولو قدم أفاد معنى آخر وهو أن المطلوب عند القراءة أن يكون الافتتاح باسم

الله تعالى لا باسم الأصنام ولا تكون القراءة في نفسها مطلوبة لما علم أن مقتضى التقديم أن يكون أصل الفعل مسلماً على ما هو عليه من زمان طلباً كان أو خبراً. وأجاب من علق الجار بالثاني بأن مطلوبية القراءة في نفسها استفيدت من اقرأ الأول فلا تغفل. والظاهر أن المعلم بالقلم غير معين وقيل هو كل نبي كتب. وقال الضحاك هو إدريس عليه السلام وهو أول من خط. وقال كعب: هو آدم عليه السلام وهو أول من كتب. وقد نسبوا لآدم وإدريس عليهما السلام نقوشاً مخصوصة في كتابة حروف الهجاء الذي يغلب على الظن عدم صحة ذلك، وقد أدمج سبحانه وتعالى التنبيه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ونيل الرتب الفخيمة ولولاه لم يقم دين ولم يصلح عيش ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره سبحانه دليل إلاّ أمر القلم والخط لكفى به وقد قيل فيه:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيد عواسل

ومما نسبه الزمخشري في ذلك لبعضهم وعنى على ما قيل نفسه:

ورواقم رقش كمثل أراقم ... قطف الخطى نيالة أقصى المدى
سود القوائم ما يجد مسيرها ... إلاّ إذا لعبت بها بيض المدى

ولهم في هذا الباب كلام فصل يضيق عنه الكتاب، وظاهر الآثار أن الكتابة في الأمم غير العرب قديمة وفيهم حادثة لا سيما في أهل الحجاز، وذكر غير واحد أن الكتابة نقلت إليهم من أهل الحيرة وأنهم أخذوها من أهل الأنبار، وذكر الكلبي والهيثم بن عدي أن الناقل للخط العربي من العراق إلى الحجاز حرب بن أمية وكان قد قدم الحيرة فعاد إلى مكة به، وأنه قيل لابنه أبي سفيان ممن أخذ أبوك هذا الخط؟ فقال: من أسلم بن أسدرة. وقال: سألت أسلم ممن أخذت هذا الخط؟ فقال: من واضعه مرامر بن مرة. وقيل: كان لحمير كتابة يسمونها المسند منفصلة غير متصلة وكان لها شأن عندهم فلا يتعاطاها إلاّ من أذن له في تعلمها، وأصناف الكتابة كثيرة. وزعم بعضهم أن جل كتابات الأمم اثنا عشر صنفاً العربية والحميرية والفارسية والعبرانية واليونانية والرومية والقبطية والبربرية والأندلسية والهندية والصينية والسريانية ولعل هذا إن صح باعتبار الأصول وإلاّ فالفروع توشك أن لا يحصيها قلم كما لا يخفى والله تعالى أعلم ولم ير بعض العلماء من الأدب وصف غيره تعالى بالأكرم كما يفعله كثير من الناس في رسائلهم فيكتبون إلى فلان الأكرم ومع هذا يعدونه وصفاً نازلاً ويستهجنونه بالنسبة للملوك ونحوهم من الأكابر وقد يصفون به اليهودي والنصراني ونحوهما مع أنه تعالى يقول ﴿**وربك الأكرم**﴾ فعلى العبد أن يراعي الأدب مع مولاه شاكراً كرمه الذي أولاه.

﴿**كَلاَّ**﴾ ردع لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه وذلك لأن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان فإذا قيل ﴿**كلا**﴾ كان ردعاً للإنسان الذي قابل تلك النعم الحلائل بالكفران وبالطغيان، وكذلك التعليل بقوله تعالى ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى**﴾ أي ليتجاوز الحد في المعصية واتباع هوى النفس ويستكبر على ربه عز وجل. وقال الكلبي: أي ليرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما وليس بذاك، وقدر بعضهم بعد قوله تعالى ﴿**ما لم يعلم**﴾ ليشكر تلك النعم الجليلة فطغى وكفر ﴿**كلا**﴾ وقيل كلا بمعنى حقاً لعدم ما يتوجه إليه الردع والزجر ظاهراً فقوله سبحانه ﴿**إن الإنسان**﴾ الخ بيان لما أريد إحقاقه وهذا إلى آخر السورة قيل نزل في أبي جهل بعد زمان من نزول الآيات السابقة وهو الظاهر، ومع نزوله في ذلك اللعين المراد بالإنسان الجنس. وقوله سبحانه ﴿**أَنْ رَآهُ**

اسْتَغْنَى﴾ مفعولاً من أجله أي يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً على أن جملة ﴿**استغنى**﴾ مفعول ثان لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون فاعله ومفعوله ضميري واحد نحو علمتني فقد قالوا إن ذلك لا يكون في غير أفعال القلوب وفقد وعدم، وذهب جماعة إلى أن رأى البصرية قد تعطى حكم القلبية في ذلك وجعلوا منه قول عائشة: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلاّ الأسودان. وأنشدوا:

ولـقـد أرانـي لـلـرمـاح دريـئـة ... مـن عـن يـمـيني تـارة وأمـامـي

فإذا جعلت رأى هنا بصرية فالجملة في موضع الحال، وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ [الشورى: ٢٧] للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد على الأول ومجرد رؤيته ظاهر الحال من غير روية وتأمل في حقيقته على الثاني، وعلى الوجهين المراد بالاستغناء الغنى بالمال أعني مقابل الفقر المعروف. وقيل المراد أن رأى نفسه مستغنياً عن ربه سبحانه بعشيرته وأمواله وقوته وهو خلاف الظاهر، ويبعده ظاهر ما روي أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. فنزل جبريل عليه السلام فقال: إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم. وقرأ قنبل بخلاف عنه «أن رأه» بحذف الألف التي بعد الهمزة وهي لام الفعل وروى ذلك عنه ابن مجاهد وغلطه فيه وقال: إن ذلك حذف لا يجوز وفي البحر ينبغي أن لا يغلطه بل يتطلب له وجهاً وقد حذفت الألف في نحو من هذا قال:

وصاني العجاج فيمن وصني

يريد وصاني فحذف الألف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم أصاب الناس جهد لو تر أهل مكة، وهو حذف لا ينقاس لكن إذا صحت الرواية وجب القبول فالقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها. وقوله تعالى ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان، والخطاب قيل للإنسان والالتفات للتشديد في التهديد وجوز أن يكون الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ. والمراد أيضاً تهديد الطاغي وتحذيره ولعله الأظهر نظراً إلى الخطابات قبله والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى والألف فيها للتأنيث، وتقديم الجار والمجرور عليه للقصر أي إن إلى ربك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً فترى حينئذ عاقبة الطغيان. وفي هذه الآيات على ما قيل إدماج التنبيه على مذمة المال كما أن في الآيات الأول إدماج التنبيه على مدح العلم وكفى ذلك مرغباً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال. وقوله تعالى ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذا صَلَّى**﴾ ذكر لبعض آثار الطغيان ووعيد عليها. ولم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية في أن العبد المصلي هو رسول الله ﷺ، والناهي هو اللعين أبو جهل. فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله ﷺ يصلي ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي ليفعل فما فجأهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» وأنزل الله تعالى ﴿**كلا إن الإنسان**﴾ إلى آخر السورة. وقول الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة لا يكاد يصح لأنه لا خلاف في أن إسلام سلمان رضي الله تعالى عنه كان بالمدينة بعد الهجرة كما أنه لا خلاف في أن السورة

مكية. نعم حكم الآية عام فإن كان ما حكي عن أمية واقعاً فحكمها شامل له والصلاة التي أشارت إليها الآية كانت على ما حكى أبو حيان صلاة الظهر، وحكى أيضاً أنها كانت تصلى جماعة وهي أول جماعة أقيمت في الإسلام وأنه كان معه عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما فمر أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له: يا بني صل جناح ابن عمك، وانصرف مسروراً وأنشأ يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي ... عند ملم الزمان والكرب
والله لا أخذل النبي ولا ... يخذله من يكون من حسبي
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما ... أخي لأمي من بينهم وأبي

وفي هذا نظر لأن الصلاة فرضت ليلة الإسراء بلا خلاف، وادعى ابن حزم الإجماع على أنه كان قبل الهجرة بسنة، وجزم ابن فارس بأنه كان قبلها بسنة وثلاثة أشهر، وقال السدي بسنة وخمسة أشهر، وموت أبي طالب كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين لأنه كان قبل وفاة خديجة بثلاثة وقيل بخمسة أيام، وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنين على الصحيح، فأبو طالب على هذا لم يدرك فرضية الصلاة. نعم حكى القاضي عياض عن الزهري ورجحه النووي والقرطبي أن الإسراء كان بعد البعث بخمس سنين لكن قيل عليه ما قيل فليراجع. والنهي قيل بمعنى المنع وعبر به إشارة إلى عدم اقتدار اللعين على غير ذلك. وفي بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهي لفظي، فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا الحديث والتعبير بما يفيد الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة والرؤية قيل قلبية وكذا في قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ وقوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ والمفعول الأول للأول الموصول وللثاني والثالث محذوف وهو ضمير يعود عليه أو اسم إشارة يشار به إليه، والمفعول الثاني للثالث قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ والأولان متوجهان إليه أيضاً وهو مقدر عندهما، وترك إظهاره اختصاراً ونظير ذلك أخبرني عن زيد إن وفدت عليه، أخبرني عنه إن استخبرته، أخبرني عنه إن توسلت إليه أما يوجب حقي وليس ذلك من التنازع لأن الجمل لا يصح إضمارها وإنما هو من الطلب المعنوي والحذف في غير التنازع، وجواب الشرط في الجملتين محذوف لدلالة ألم يعلم عليه ويقدر حسبما تقتضيه الصناعة، وقيل يدل عليه ﴿أرأيت﴾ مراداً به ما سيذكر قريباً إن شاء الله تعالى ويقدر كذلك، والكلام عليه أيضاً نظير ما مر آنفاً، والضمائر المستترة في كان وما بعد من الأفعال للناهي والمراد من ﴿أرأيت﴾ أخبرني فإن الرؤية لما كانت سبباً للعلم أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والاستفهام الواقع موقع المفعول الثاني هو متعلق الاستخبار هنا وهذا الإجراء على ما يفهم من كلام بعض الأئمة يكون مع الرؤية البصرية والرؤية القلبية وللنحاة فيه قولان، والخطاب في الكل على ما اختاره جمع لكل من يصلح أن يكون مخاطباً ممن له مسكة وقيل للإنسان كالخطاب في ﴿إلى ربك﴾ وتنوين ﴿عبداً﴾ على ما هو ظاهر كلام البعض للتنكير، وتقييد النهي بالظرف يشعر بأن النهي عن الصلاة حال التلبس بها وفصل بين الجمل للاعتناء بأمر التشنيع والوعيد حيث أشعر أن كل جملة مقصودة على حيالها فشنع سبحانه على الناهي أولاً بنهيه عن الصلاة، وأوعد عليه مطلقاً بقوله تعالى ﴿أرأيت الذي﴾ الخ أي أخبرني يا من له أدنى تمييز أو أيها الإنسان عمن ينهى عن الصلاة بعض عباد الله تعالى ألم يعلم بأن الله تعالى يرى ويطلع فيجازيه على ذلك النهي. وشنع سبحانه عليه ثانياً بنهيه عن ذلك وأوعده عليه أيضاً على تقدير أنه على

زعمه على هدى ورشد في نفس النهي أو أنه أمر بواسطته بالتقوى لأن النهي عن الشيء أمر بضده أو مستلزم له فقال تعالى شأنه ﴿أرأيت إن كان﴾ الخ أي أخبرني عن ذلك الناهي ألم يعلم أن الله يطلع فيجازيه إن كان على هدى ورشد في نفس النهي أو كان أمراً بواسطته بالتقوى كما يزعم. وشنع جل شأنه عليه ثالثاً بذلك وأوعده عليه أيضاً على تقدير أنه في نفس الأمر وفيما يقوله تعالى مكذباً بحقية الصلاة متولياً عنها معرضاً عن فعلها بقوله تعالى ﴿أرأيت إن كذب﴾ الخ أي أخبرني عن ذلك الناهي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله إن كذب بحقية ما نهى عنه وأعرض عن فعله على ما نقوله نحن، والحاصل أنه تعالى شنع وأوعد على النهي عن الصلاة بدون تعرض لحال الناهي الزعمي أو الحقيقي، ثم شنع وأوعد جل وعلا عليه مع التعرض لحاله الزعمي، ثم شنع عز وجل وأوعد عليه مع التعرض لحاله الحقيقي وهذا كالترقي في التشنيع. والجمهور على عدم تقييد ما في حيّز الشرطيتين بما ذكرنا حيث قالوا: إن كان على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يزعم أو كان مكذباً للحق ومتولياً عن الصواب كما نقول، وذكر أن الشرط الثاني تكرار للأول لأن معنى الأول أنه ليس على الهدى، وأوضح بأن إدخال حرف الشرط في الأول لإرخاء العنان صورة والتهكم حقيقة إذ لا يكون في النهي عن عبادته تعالى والأمر بعبادة الأصنام هدى البتة، وفي الثاني لذلك والتهكم على عكس الأول إذ لا شك أنه مكذب متولٍّ فما لهما إلى واحد. وقيل: إن الرؤية في الجملة الأولى بصرية فلا تحتاج إلى مفعول ثانٍ، وفي الثانية والثالثة قلبية والمفعول الأول على ما تقدم والمفعول الثاني سد مسده الجملة الشرطية الأولى بجوابها وهو في الأخيرة ﴿ألم يعلم﴾ الخ المذكور وفيما قبلها محذوف دل هو عليه، ولم تعطف الأخيرة على ما قبلها للإيذان باستقلالها بالوقوع في نفس الأمر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب، وأما قبلها فأمر الشرط فيه ليس إلاّ لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريده عن الجواب والإحالة به على جواب الشرطية بعده، والخطاب في الكل لمن يصلح له والتنوين في ﴿عبداً﴾ لتفخيمه عليه الصلاة والسلام واستعظام النهي وتأكيد التعجيب منه والمعنى أخبرني عن ذلك الناهي إن كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى الخ ما ذكر آنفاً ألم يعلم أن الله يرى ويطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل. وقيل إن ﴿أرأيت﴾ في الجمل الثلاث من الرؤية القلبية، والمفعول الأول للأولى الموصول، ومفعولها الثاني الجملة الشرطية الأولى بجوابها المحذوف اكتفاء عنه بجواب الشرطية الثانية إذ علم من ضرورة التقابل. و ﴿أرأيت﴾ الثانية تكراراً للأولى، و﴿أرأيت﴾ الثالثة ومفعولها الأول محذوف للقرينة مستقلة لأنها تقابل الأولى للتقابل بين الشرطين يعني قوله تعالى ﴿إن كان﴾ الخ، وقوله سبحانه ﴿إن كذب﴾ الخ. وفي الإتيان بالجملة الأخيرة من دون العطف ترشيح للكلام المبكت وتنبيه على حقية الشرط، ولهذا صرح بجوابه ليتمحض وعيداً والخطاب على ما تقدم أولاً والكلام من قبيل الكلام المنصف وإرخاء العنان ولذا قيل ﴿عبداً﴾ ولم يقل نبياً مجتبى فكأنه قيل أخبرني يا من له أدنى تمييز عن حال هذا الذي ينهى بعض عباد الله تعالى فضلاً عن النبي المجتبى عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأصنام كما يزعم، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما تقول ﴿ألم يعلم﴾ الخ. وقيل ﴿أرأيت﴾ في الجملتين الثانية والثالثة تكرار للأولى والشرطيتان بجوابهما سادتان مسد المفعول الثاني للأولى، و ﴿ألم يعلم﴾ الخ جواب الشرط الثاني وجواب الأول محذوف لدلالته عليه ولم يقل أو إن كذب الخ لأنه ليس بقسيم لما قبله على ما قيل. والمعنى على نحو ما سمعت وأورد على جميع هذه الأقوال أن في تجويز

الإتيان بالاستفهام في جزاء الشرط من غير الفاء وإن صرح به الزمخشري في كشافه وارتضاه الرضي واستشهد له بقوله تعالى ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلاّ القوم الظالمون﴾ [الأنعام: ٤٧] بحثاً لأن ظاهر نقل الزمخشري نفسه في المفصل ونقل غيره وجوب الفاء إذا كان الجزاء جملة إنشائية والاستفهام وإن لم يبق على الحقيقة لم يخرج على ما في الكشف من الإنشاء. وقال أبو حيان: إن وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء لا أعلم أحداً أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه ما ولا يجوز حذفها إلاّ في ضرورة أو شعر. وقال الدماميني في شرح التسهيل: إن جعل هل يهلك جزاء مشكل لعدم اقترانه بالفاء والاقتران بها في مثل ذلك واجب. واعترض أيضاً جعل الجملة الشرطية في موضع المفعول الثاني لأرأيت بأن مفعولها الثاني لا يكون إلاّ جملة استفهامية كما نص عليه أبو حيان وجماعة، أو قسمية كما في الإرشاد. وقال الخفاجي: إن جعل الشرطية في موقع المفعول والجملة الاستفهامية في موقع جواب الشرط إما على ظاهره أو على أنهما لدلالتهما على ذلك جعلا كأنهما كذلك لسدهما مسد المفعول والجواب وبما ذكر صرح الرضي والدماميني في شرح التسهيل في باب اسم الإشارة فما قيل من أن المفعول الثاني لأرأيت لا يكون جملة استفهامية مخالف لما صرحوا بأنه مختار سيبويه فلا يلتفت إليه، ولم يجعلوا فيما ذكر الخطاب للنبي ﷺ ولا للكافر الناهي لأن السياق مقتض لخروج الناهي والمنهي عن مورد الخطاب. واستظهر في البحر جعله للنبي وجوز غيره جعله للكافر. والمراد تصوير الحال بعنوان كلي وهو كما ترى.

وقيل الضميران في ﴿**إن كان**﴾ و ﴿**أمر**﴾ للعبد المصلي والضمائر في ﴿**كذب وتولى**﴾ و ﴿**يعلم**﴾ للذي ينهى. وحاصل المعنى على ما قال الفراء أرأيت الذي ينهى عبداً يصلي والمنهي على الهدى وآمر بالتقوى والناهي مكذب متول فما أعجب من ذا. والظاهر أن جواب الشرط عليه محذوف وهو فما أعجب من ذا بقرينة ﴿**أرأيت**﴾ فإنه يفيد التعجب والرؤية فيه قيل علمية، والمفعول الثاني محذوف نحو هذا الجواب وقيل بصرية و ﴿**ألم يعلم**﴾ الخ جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وتأكيده، وأو تقسيمية بمعنى الواو. وقيل الخطاب في ﴿**أرأيت**﴾ الثانية للكافر وفي الثانية للنبي ﷺ فهو عز وجل كالحاكم الذي حضر الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه سبحانه قال: يا كافر أخبرني إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله تعالى أمراً بالتقوى أتنهاه، وأخبرني أيها الرسول إن كان الناهي مكذباً بالحق متولياً عن الدين الصحيح ألم يعلم بأن الله تعالى يجازيه. وسكت هذا القائل عن الخطاب في ﴿**أرأيت**﴾ الأول فقيل: لكل من يصلح له وقيل للإنسان، وقيل للنبي ﷺ كالخطاب في الثالث. وقوله أتنهاه يحتمل أنه جعله مفعولاً لرأيت، ويحتمل أنه جواب الشرط أو كما في سابقه ولعل ذكر الأمر بالتقوى في الجملة الثانية لأن النهي على ما قيل كان عن الصلاة والأمر بها وكان الظاهر عليه أن يذكر في الجملة الأولى أيضاً بأن يقال أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى لكنه حذف اكتفاء بذكره في الثانية، واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية، والصلاة دعوة فعلية والفعل أقوى من القول. وإنما كانت دعوة وأمراً لأن المقتدى به إذا فعل فعلاً كان في قوة قوله افعلوا هذا. وقيل المذكور أولاً ليس النهي عن الصلاة بل النهي حين الصلاة وهو محتمل أن يكون لها أو لغيرها، وعامة أحوال الصلاة لما انحصرت في تكميل نفس المصلي بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة فنهيه في تلك الحالة يكون عن الصلاة والدعوة معاً فلذا ذكر في الجملة الثانية انتهى. فلا تغفل.

وجوز الإمام كون الخطاب في الكل له عليه الصلاة والسلام وقال في بيان معنى ﴿**أرأيت إن كان**﴾

الخ أرأيت إن صار على الهدى واشتغل بأمر نفسه، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة، فلو اختار الرأي الصائب والاهتداء والأمر بالتقوى أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله تعالى والنهي عن خدمته سبحانه وطاعته عز وجل؟ كأنه تعالى يقول: تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العلية وقنع بالمراتب الردية. واعتبر عصام الدين هذه الجملة توبيخاً على تفويت ما ينفع وما بعدها توبيخاً على كسب ما يضر فقال: إن قوله تعالى ﴿**أرأيت الذي**﴾ الخ استشهاد لطغيان الإنسان إن رآه مستغنياً والرؤية بمعنى الإبصار، أي أشاهدت الذي ينهى عبداً إذا صلى وعرفت طغيان الإنسان المستغني وأنه لا يكفي بكفرانه ويتجاوز إلى تكليف العبد الذي أرسل للمنع عن الكفران بالكفران. وقوله سبحانه ﴿**أرأيت إن كان**﴾ الخ توبيخ له على فوت ما لا يعلم كنهه بفوت الهدى والأمر بالتقوى، يعني أعلمت أنه على أي فور إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وقوله عز وجل ﴿**أرأيت إن كذب**﴾ الخ توبيخ له بما كسب من استحقاق العذاب والبعد عن رب الأرباب أي أعلمت أنه على أي عقوبة ومؤاخذة. وقوله تعالى ﴿**ألم يعلم**﴾ الخ تهديد ووعيد شديد بعد التوبيخ على كسب حال الشقي وفوت حال السعيد انتهى. وهو كما ترى فتأمل جميع ما تقدم والله تعالى بمراده أعلم. ثم إن الآية وإن نزلت في أبي جهل عليه اللعنة لكن كل من نهى عن الصلاة ومنع منها فهو شريكه في الوعيد ولا يلزم على ذلك المنع عن النهي عن الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة لأن المنهي عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها بل عن وصفها المقارن وأشهد الاحتياط تحاشي بعضهم عن النهي مطلقاً فروي عن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد، فقال: ما رأيت رسول الله ﷺ يفعل ذلك، فقيل له رضي الله تعالى عنه: ألا تنهاهم؟ فقال رضي الله تعالى عنه: أخشى أن أدخل تحت وعيد قوله تعالى ﴿**أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى**﴾ وفي رواية لا أحب أن أنهى عبداً إذا صلى، ولكن أحدثهم بما رأيت من رسول الله ﷺ وقد سلك نحو هذا المسلك أبو حنيفة عليه الرحمة فقد روي أن أبا يوسف قال له: أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لي؟ فقال: يقول ربنا لك الحمد ويسجد. ولم يصرح بالنهي ويقاس على النهي عن الصلاة النهي عن غيرها من أنواع العبادة، ولا فرق بين النهي القالي والنهي الحالي، ومنه أن يشغل المرء المرء عن ذلك وقد ابتلي به كثير من الناس.

﴿**كَلَّا**﴾ ردع للناهي اللعين وزجر له. واللام في قوله تعالى ﴿**لَئِن لَّمْ يَنتَهِ**﴾ موطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿**لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ**﴾ أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار يوم القيامة والسفع قال المبرد الجذب بشدة وسفع بناصية فرسه جذب. قال عمرو بن معد يكرب:

قوم إذ كثر الصياح رأيتهم ... ما بين ملجم مهره أو سافع

وقال مؤرج: السفع الأخذ بلغة قريش. والناصية شعر الجبهة وتطلق على مكان الشعر وأل فيها للعهد، واكتفي بها عن الإضافة وهو معنى كونها عوضاً عن المضاف إليه في مثله والكلام كناية عن سحبه إلى النار وقول أبي حيان إنه عبر بالناصية عن جميع الشخص لا يخفى ما فيه وقيل: المراد لنسحبنه على وجهه في الدنيا يوم بدر وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته وقد فعل عز وجل فقد روي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال ﷺ: «من يقرؤها على رؤساء قريش»؟ فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله، فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام لضعفه وصغر جثته حتى قالها ثلاثاً وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول: أنا يا رسول الله، فأذن له ﷺ فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة فشرع في القراءة فقام أبو جهل فلطمه وشق أذنه وأدماه، فرجع وعيناه تدمعان فنزل جبريل عليه السلام ضاحكاً

فقال له ﷺ في ذلك، فقال عليه السلام «ستعلم» فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام: التمسوا أبا جهل في القتلى فرآه ابن مسعود مصروعاً يخور فارتقى على صدره ففتح عينه فعرفه، فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، فقال ابن مسعود: الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. فعالج قطع رأسه فقال اللعين: دونك فاقطعه بسيفي. فقطعه ولم يقدر على حمله فشق أذنه وجعل فيها خيطاً وجعل يجره حتى جاء به إلى رسول الله ﷺ فجاء جبريل عليه السلام يضحك ويقول: يا رسول الله أذن بأذن والرأس زيادة، وكأن تخصيص الناصية بالذكر لأن اللعين كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها، أو لأن السفع بها غاية الإذلال عند العرب إذ لا يكون إلاّ مع مزيد التمكن والاستيلاء ولأن عادتهم ذلك في البهائم. وقرأ محبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو «لَنَسْفَعَنَّ» بالنون الشديدة. وقرأ ابن مسعود «لأسفعن» كذلك مع إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وحده، وكتبت النون الخفيفة في قراءة الجمهور ألفاً اعتباراً بحال الوقف فإنه يوقف عليها بالألف تشبيهاً لها بالتنوين وقاعدة الكتابة مبنية على حال الوقف والابتداء ومن ذلك قوله:

ومهما تشأ منه فزارة تمنعا

وقوله:

يحسبه الجاهل ما لم يعلما

وقوله تعالى ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدل من الناصية وجاز إبدالها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت بقوله سبحانه ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فاستقلت بالإفادة وقد ذكر البصريون أنه يشترط لإبدال النكرة من المعرفة الإفادة لا غير، ومذهب الكوفيين أنها تبدل منها بشرطين اتحاد اللفظ ووصف النكرة وليشمل بظاهره كل ناصية هذه صفتها وهذا مما يتأتى على سائر المذاهب، ووصف الناصية بما ذكر مع أنه صفة صاحبها للمبالغة حيث يدل على وصفه بالكذب والخطأ بطريق الأولى، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه كأن كل جزء من أجزائه يكذب ويخطأ وهو كقوله تعالى ﴿تصف ألسنتهم الكذب﴾ [النحل: ١١٦] وقولهم وجهها يصف الجمال. فالإسناد مجازي من إسناد ما للكل إلى الجزء، وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي «نَاصِيَةً كَاذِبَةً خَاطِئَةً» بنصب الثلاثة على الشتم والكسائي في رواية برفعها أي هي ناصية الخ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ النادي المجلس الذي ينتدي فيه القوم أي يجتمعون للحديث ويجمع على أندية، والكلام على تقدير المضاف أي فليدع أهل ناديه أو الإسناد فيه مجازي أو أطلق اسم المحل على من حل فيه ومثله في هذا المجلس ونحوه كما قال جرير أو ذو الرمة:

لهم مجلس صهب السبال أذلة　　　سواسية أحرارها وعبيدها

وقال زهير:

وفيهم مقامات حسان وجوههم　　　وأندية ينتابها القول والفعل

وهذا إشارة إلى ما صح من أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك فأغلظ عليه الصلاة والسلام له، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً والأمر على ما في البحر للتعجيز والإشارة إلى أنه لا يقدر على شيء ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار وهو في الأصل الشرط أي أعوان الولاة. واختلف فيه فقيل جمع لا واحد له من لفظه كعباديد. وقال أبو عبيدة: واحده زبنية ـ بكسر فسكون ـ كعفرية. وقال الكسائي: واحده زبنى ـ بالكسر ـ كأنه نسب إلى الزبن ـ بالفتح ـ وهو الدفع ثم غير للنسب، وكسر أوله كإنسي وأصل الجمع زباني فقيل زبانية بحذف إحدى ياءيه وتعويض التاء عنها. وقال عيسى بن عمر والأخفش واحده زابن والعرب قد تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه وإن لم يكن من أعوان الولاة ومنه

قوله:

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى زبـانـيـة غـلـب عـظـام حـلـومـهـا

وسمي ملائكة العذاب بذلك لدفعهم من يعذبونه إلى النار. وهذا الدعاء في الدنيا بناء على ما روي من أنه لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً والظاهر أن ﴿سندع﴾ مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم ورسم في المصاحف بدون واو لاتباع الرسم للفظ فإنها محذوفة فيه عن الوصل لالتقاء الساكنين أو لمشاكلة ﴿فليدع﴾ وقيل إنه مجزوم في جواب الأمر وفيه نظر. وقرأ ابن أبي عبلة «سَيُدْعَى» الزبانية بالبناء للمفعول ورفع «الزَبانِيَةُ» ﴿كَلاَّ﴾ ردع لذلك اللعين بعد ردع وزجر له إثر زجر ﴿لا تُطِعْهُ﴾ أي دُم على ما أنت عليه من معاصاته ﴿واسْجُدْ﴾ وواظب غير مكترث به على سجودك وهو على ظاهره أو مجاز عن الصلاة ﴿واقتَرِبْ﴾ وتقرب بذلك إلى ربك. وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء». وفي الصحيح وغيره أيضاً من حديث ثوبان مرفوعاً: «عليك بكثرة السجود فإنه لا تسجد لله تعالى سجدة إلاّ رفعك الله تعالى بها درجة وحط عنك بها خطيئة». ولهذه الأخبار ونحوها ذهب غير واحد إلى أن السجود أفضل أركان الصلاة، ومن الغريب أن العز بن عبد السلام من أجلّة أئمة الشافعية قال بوجوب الدعاء فيه وفي البحر ثبت في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام سجد في ﴿إذا السماء انشقت﴾ [الانشقاق: ١] وفي هذه السورة وهي من العزائم عند علي كرم الله تعالى وجهه، وكان مالك يسجد فيها في خاصة نفسه والله تعالى الموفق.